

# فتاة تافهة

منى جبور 1959

[www.kobayat.org](http://www.kobayat.org)

Electronic copy 2011

Thanks to Mr. Jimmy Jabbour for typing this document.

Electronic edition 2011 revised & produced by Webmaster Elie Abboud



## الفصل 1

القرم المكوم في الزاوية يطم شفنيه قائلاً: "العلويون يفلحون على المرأة"... والمعلم ينبخ: "بلا جدال، المرأة مخلوق ضعيف الشخصية والارادة، المرأة مخلوق يكمله الرجل، ومن واجبها ان تخضع له".

كذاب، كذاب هذا الوقح.

سأجادل، رغم انني في الصف تقيدني فروض وتسكتني رهبة - فهو معلمي - لكني اربأ بنفسني ان اواجه اقزماً كاذبة وابقى صامتة.

سأخرج، فانا لست ضعيفة لأتعلّم. ليتني اقوى على اظهار البرهان في تحطيم هذا المقعد على رؤوس التلامذة وفي مرمغة انف المعلم بحذائي لأريه انني كيان مستقل.

جررت نظري اليه، فاذا على اسنانه خيوط صفراء، والبصاق يفور من شفنيه.

وسخ... خنزير.

واعجبنتني الكلمات فضحكت ووضعت رأسي على الطاولة ارسم بقلمني خنازير ووسخاً ودوداً ووحلاً. خيل الي ان رائحة كريهة تتغلغل فيّ، فكدت اتقياً.

ولملت رأسي فاذا الانظار عالقة بي والمعلم لا يزال يجن بلسانه: "المدنية شوهدت وجه العالم فتمردت النساء على التقاليد. لم يبق الرجل يشعر بلذة الزواج، ما دامت المرأة تشاركه العمل... المرأة خلقت للنسل والبيت. بشع وجه الحياة عندما بدأنا نرى النساء في الشوارع والمكاتب والمعامل. المرأة خلقت للنسل. نعم..."

انه يكمل، واللعب يتطاير من فمه. رأسه تدور في الفضاء كراس جمل وفي وجهه حفر واوساخ. خنزير. دود. جراثيم. جيف. ورائحة: اكاد اتقياً.

رفعت رأسي على صوت الجرس وعواء المعلم: "ندى، متى تتخلصين من العصبية؟ انت متحمسة بتعصب لانوثتك".

وشدنتي رفيقة وانا اندفع خارج الصف: "ندى، ضيقي الحزام على خصرك. جسمك جميل. اظهري مفاتنه".

اود خنقها وكدت اخنقها بعيني هذه البقرة... لا تفكر الا في مفاتن جسدها... يسرها ان تكون اقنوماً ناقصاً لا يمكنه الا رجل.

في الملعب بكيت وكدت انفجر.

فككت حزامي، نبشت شعري، مددت يدي الى ظهري احرق ثديي من زيزانتى الصدرية. شنقت جوربي القطنيين حتى منتصف ساقى... اريد ان اشوه مظهري، فمن المستحيل ان اقوم بمهمة النسل واكون صنم جمال وبشر لذة.

سأتحداه، هذا الخنزير.

حجبت نظري رفيقة تسألني عن مسألة حسابية. كم هي بليدة! صرفتها بجنون، فرأيتها تضحك وهي تدير ظهرها. فرحت: هكذا اريد ان ينظر الي، ككيان قائم بذاته - كيان لا يتأثر بغيره من الاقانيم ولا يهمله اعجاب الرجال - اعجاب الخنازير.

وفي طريقي الى الصف، انحشر ورائي استاذ العلوم يسألني عن كتاب ادبي، ومرّ قربي تلميذ ثقيل تاركاً في انفي رائحة كريهة كرائحة التبغ. ورفعت رأسي فاذا العيون كلها تلتهمني وتمضي. سمعت ضحكاً وصل الى اذني من الزاوية.

ما ازال بلا حزام بشعري المنبوش وجوربي المشنوقين، والنار - آه منها - احسّها في جبهتي.

يضحكون مني؟ اسرعت اغرق في المقعد، ورميت رأسي على الطاولة ابكي وابكي.

إنني ضعيفة حجر جامد، عبدة تذللني دموعي، يذلني غرقي في المقعد، تذللني النار التي اشربيت خرقاء الى عيني.

وزركتني يد تتزعه على شعري وثوبي المتهدل بلا حزام فشددت رأسي احاول ان احطم هذه اليد الوقحة التي تتحسس جسدي لكني هدأت عندما لمست الصمت المهيم. رفيقتي لا تزال تنزه يدها على عنقي وفي عينيها حنو وعطف ودموع. واستدرت نحو الجهة المقابلة افتش في عيون رفاقي الشبان عن الحنو والعطف والدموع فاذا فيها سخرية وقسوة وضعف.

هذه الجمادات، هذه الخنازير لا تتأثر، يههما ان تلعق الدود والاوساخ، لم اعاشر هذه الآلات الميتة؟ يجب ان اتحرّر، ان اصنع كياني المستقل.

لمست ظلاً اسود يتكدس امامي على الطاولة وبدأت احزّ عليه بالقلم، لو امزّقه! لو ابديه واخنقه! لكنه استاذ العلوم يذوب امامي.

مسكين هذا الرجل! تضعفه الدموع ويتردد ضعفه رقة: "ندى، يجب ان ترتاحي، وجهك شاحب. هذا التشاؤم يضرّك".

متشائمة يسمونني في المدرسة. وفي البيت مجنونة. وفي المجتمعات يقولون عني: غريبة الاطوار... كأنهم يبصقون عليّ.

أيها انا بين هذه الالقاب؟ "من" انا؟

ولمحت الاستاذ يخبئ ألمه وراء ابتسامه باكية ثم سمعت - ورأسي مدفونة في الطاولة - طقطقة كتب وصرير اقلام وطبشور على اللوح. قلت: يجب ان امسك دموعي فالتشاؤم يضرني والوحدة تضرني والمدنية تضرني ...

ماذا ينفعني إذا؟

والدي ينبهني: "الطعام ينفحك، وامى تقول ان النوم والراحة يوقفان هزالي. هذه الاشياء التي تنمي ضعفي وجمالي وتغذي حاجتي للحماية، هذه وحدها تنفعني لأكون بقرة آكل وأنام، لأكون عبدة اسجد عند قدمي رجل يحميني، فأعيش كيانه الكامل اقنوماً ناقصاً يقوم بمهمة النسل.

وعرقل تفكيري صوت تلميذ فرغت نظري ثقيلاً اغرقه في عيون زملائي: زرقاء. زرقاء. سوداء. عسلية. سوداء. شهلاء. ثم دسست نظري في شعر كل منهم: اسود بني. اجعد. اشقر. بني. وأزحت عيني اتأمل اوضاعهم وافتش عن الاحذية والجوارب، عن وضع الاقدام الرخوة، وخيل الي انني ارى انوفاً حمراء تتمرغ بالتراب ورائحة كريهة تحوم حول رأسي، فمسني قرف ظالم واحسسته يغرز ويؤلمني في معدتي .. في قلبي ثم في صدغي.

وفيما انا أخرج مع تنهدي شيئاً من كدس القرف، سمعت صوت الجرس ورأيت المعلم يللم كتبه ويخرج يده، فانفه، فوجهه، ثم ينعدم تاركاً وراءه في الصف ضجيجاً صاخباً ومقاعد تتزحزح ثم ضحكات فاقعة وهمسات خافتة. ثم يدخل معلم جديد ويسود الصمت.

اهذا احترام؟

اتمنى لو يقترب ويفتح فمه لأرى اسنانه هل هي صفراء، هل في فمه بصاق يفور ويتوزع على الوجوه الجامدة امامه؟ اقترب، حرك شفتيه ليخرج كلمة فعلقت عيناى بأسنانه: بيضاء. بيضاء كالتلج. اسنانه رائحة في تناسقها.

وتدحرجت الى حدائه: اسود، عليه غبار قديم وفتق كأنه فم يستجدي قبلة. وارتفعت الى جوربيه، انهما كحليان فيهما خيط دم. قميصه ابيض تحبس طوقه كنزة رمادية. شعره فوضوي في تناسقه.

هذا كلب نظيف، وذاك خنزير، وذلك ضبع، هذا الذي يفوح منه نتن التبغ، ضبع.

سحبت من الدروب البيضاء على اللوح كلمات شاردة: وطن، مجتمع، كيانات، جراثيم، راع، مُثُل. صفت الكلمات بفوضى في خيالي افتش لها عن معنى... فراغ، لا شيء. الكلمات اقانيم ناقصة تحتاج لحماية. الكلمات نساء، مهمتهن النسل... هذا المقعد امرأة، هذه الطاولة امرأة، هذا اللوح امرأة، هذا الكتاب... يفرحني الواقع هذا: انا امرأة، واحدة من مجموع تؤلفه كل جمادات الارض.

لماذا لا تبكي مثلي هذه المقاعد، وهذه الحجارة، وهذا اللوح؟ هويت بكفي على الطاولة فأحدث أنة. اهذا تأوه؟ ناداني الاستاذ: "ندى انت دائماً تحلمين... كفى! هذه المواضيع الاجتماعية تفيدك". فرحت. هناك اشياء اخرى غير الطعام والنوم تفيدني... المواضيع الاجتماعية، واخذت اجرر اظفاري على الطاولة: مواضيع اجتماعية. لماذا لا انتقم من المواضيع الاجتماعية؟ لماذا لا اقلبها الى اشياء لا معنى لها. الى نساء...! قلبتها: مواضيع: عيضاوم، اجتماعية: تيعامتجا. اذا العيضاوم تيعامتجا تفيدني.

وفيما انا اضحك اصطدم نظري بنظر المعلم فسألني: "هل توافقين على ضرورة تسخير الفرد لسلامة الجماعة؟" فوقفت دون أن اشعر، اشرد بنظري في حفر الحائط، ماذا - سلام. فرد؟ تحقيق؟ حماية؟ هل السلام رجل؟ لا. انه اقنوم يقول السؤال لأنه بحاجة الى الفرد، الى كيان يكمله. السلام امرأة. يجب ان اجيب فالمواضيع الاجتماعية تفيدني.

وقال المعلم وهي يكز بأسنانه: "ندى، ندى، هل اعيد السؤال. انتبهني! ما رأيك في قيام السلام العالمي على مجهود الفرد... ندى هذه المواضيع تفيدك..."

ما باله ملأ الفضاء بذكر الكيانات؟

- ما معنى الكيان الجماعي؟ هل هناك كيانات مستقلة؟

وتتأعب جفناه وهو يتحرك نحوي: "ندى... حتى بهذا تشكين؟ لا بأس. هذا نتيجة احلامك الكبيرة. انصحك. كوني واقعية.. شكراً".

"شكراً" معناها: اجلسي. جلست وسمعت صوت الكلب النظيف يعلو ويعلو حتى يملأ الغرفة كلها: "... الفردية ما اقوم به انا وهذا وذاك وتلك. الفردية استقلال الفرد في تأمين مصيره... الفردية..."

الاعمال التي اقوم بها انا وهذا وذاك وتلك...

اعجبتني هذه "النلك"... تلك تقال لأمرأة. اذا المرأة تجمع مع الرجل في عمل، اذا تلك تذكر مع هذا وذاك. لماذا هي اذا اقنوم ضعيف وذلك كيان قائم بذاته؟ اريد ان اعرف الفرق مع اصبعي الهاجمة الى وجه المعلم:

- استاذ! هل تستطيع المرأة ان تكون كياناً مستقلاً؟

- لم لا؟ بصقها جافة ثم هز برأسه واسرع في سد منفذ اسنلتى مكملاً الشرح عن المثالية والدعامات والكيانات...

وفي الطريق من المدرسة الى البيت فكرت في كلمتي: "لم لا"؟ المرأة تستطيع ان تكون كياناً ثابتاً وفرداً مستقلاً وتستطيع ان تساهم في تكوين السلام العالمي...

لكن امرأة بدينة تتادي ابنها من النافذة، تكذبني، فهذه تعيش في كنف رجل، هذه اقنوم، هذه ضعيفة وعبدة.

أكملت طريقي وصورة المرأة البدينة تلحق بي وتعصر عنقي. اي امرأة تستطيع ان تكون كياناً قائماً بذاته؟ هذه التي تتادي ابنها؟ امي التي تتمزق عندما يضحك والدي لامرأة اخرى؟ رفيقاتي المائعات في الصف؟ اشك بهذه "اللم لا"...

واستقبلني الشك على الباب في ضحكة امي العريضة فلفظته على وجهها مع قبلة سامة واندفعت نحو غرفتي لأقترب شيئاً فشيئاً من المرأة. خيالي المرعب، شعري المشتت. ثوبي المتهدل بلا حزام. وجهي الاصفر. جوربائي ممطوطان الى فوق. واقترب اكثر فاكثرت حتى يصطدم انفي بزجاج المرأة فأمر بيدي على انفي، على شفتي، على جبهتي، واغرز اصابعي بشعري ابعثر خصله على وجهي حتى اغطي عيني ولا اعود ارى الا بصيصاً خفيفاً ينبعث من بين الأسود...

بشعة، بشعة أنا الآن. احب لو تدوم هذه البشاعة لأكسف بها نظر الرجال ما دمت لن أحتاج الى كيان يكمل وجودي فاتعري امامه واقوم بمهمة النسل. إنني أكره الرجال وأكره الاطفال.

\*\*\*\*\*



ورفعت رأسي افلي الرؤوس المنطوية على الطاولات. الصمت يخنق الصف، يقطعه شهيق خفيف ينبعث من ورائي، من صدر فتاة، وخشخشة قدم تتحرك في الجهة المقابلة. قلبت رأسي اكثر فأكثر حتى قابلت الخنزير الذي يهدر في الجو فسنمني خوف حاد وأنا استقبل انصباب عينيه على وجهي.

جمدت احملق فيه... انا تائهة، اشعر فقط ان علي ان اثار لكرامة الصف وامرغ وجه الخنزير بالتراب، بحدائي... يجب ان اتحداه...

اتحداه وانا امرأة؟

وتحوّل الهدير الى نباح:

- ندى اخفضي نظرك... وقحة...

انتصبت اتحمس لأتكلم... لا استطيع... الخوف يبكل مخالفه حول عنقي... فككت شفتي احاول ان أخرج صوتي، ان اهدئ اعصابي، أن أسكت العاصفة في دمي، لكنه ظل يفور ويفور ويغلي... مرة أخرى أحاول ان ارفع صوتي، ان اعاند الخنزير واهجم عليه اعجن أسنانه بحدائي لكنني ضعيفة، لكنني امرأة!.

وقفزت الى ذاكرتي، والمعلم يصّب عليّ غضبه، صورة اللعاب المتطاير والاسنان الصفراء فضحكت ثم بطحت رأسي على الطاولة...

واوقف ضحكي جعير حاد: "ندى قفي، وقحة!"

تؤلمني هذه الدموع. انها تتحدى قوتي. واتكأت على الطاولة اسمع هدير الخنزير بأن اقف دون ان اكلف نفسي عناء الجواب.

وبقيت صامتة، رأسي على الطاولة وعيناوي تبحثان في الأرض عن دودة وقليل من التراب اخنق بها صوت الخنزير. ثم أخذت النار تضح في رأسي والغضب يهزني، يشد بأظفري على رأسي. وعلقت نظري بحبال الانفاس المتلاحقة في الصف وزأزة الباب المنبلج عن المدير وتلميذ زميلي.

هل أقف؟ لا... بلى!.

وبقيت جامدة انقرس في الاسنان الصفراء، والجبهة التي تقطر سماً. فأنا لا أحترم هذا الخنزير، ولا أحترم المدير، ولا أخاف أحداً، ولا أريد ان أكذب فلماذا أقف.

هذه الحركة تكلفني تحريك قدمي وتحريك جسدي. تكلفني عذاباً في ضميري وقرفاً، فانا عندما أقف أزداد اقتراباً من اللعاب المتطاير والاسنان الصفراء.

لم اهتز، أما زملائي فانتصبوا كالعواميد الفارغة. كلاب، تخيفهم العصا. كذابون وعبيد، يخشون الخنزير  
الوسخ والكلب الآخر الذي ينتصب مديراً في المدرسة.

نزعت عيني أتأمل وجوههم. وخيّل إلي أنني أرى في عيونهم خنادق عميقة وعلى شفاههم أوراقاً خريفية. بقيت  
جامعة أنقل عيني من وجه الى وجه، ثم استدرت أفنشي في الزاوية عن الفتاة التي كانت تشهق. وفي طريق  
العودة اصطدم نظري بقدم أحد الزملاء فاكتشفت ثقباً في جوربه الرمادي وخيط وحل على بنطلونه الأسود.  
الثقب عين، والوحل حاجب، وكعب الحذاء ذقن طويلة. اما الفاصل بين النعل والجلد ففم. وخيّل إلي أنني أرى  
البصاق يتطاير منه ويغمر وجهي.

وتحرك المدير نحوي، فاعتراني خوف قاتل من جنثه الضخمة وأحسست بثقل في عيني فبدأت أرتعد وارتجف  
ثم رميت رأسي بين يديّ وبكيت.

اكرهها هذه الدموع! لكنني لا أستطيع أن أوقفها. انها بقايا ضعفي فأنا اقنوم ناقص سيحمني رجل، سيحرسني  
كيان قوي، سأكون عبدة - ماذا، عبدة؟

لا، لن أبكي، ولن انصاع لرجل. فأنا اكفر بالخنازير وبسببهم سأترك المدرسة.

وحسبت أن المدرسة تتعلق بي عندما امتدت يد تشدني من جهتي الى فوق، فرفعت رأسي لأصطدم بالمدير.

ماذا يريد؟

حرّكتني القرف من رائحة التبغ المنبعثة من يده، فابعدتها عني وطمرت رأسي بفيض من الدموع. انني ضائعة  
ومجنونة وغريبة. تغرقني الألقاب المتباعدة، ويشتتني الصوت المنبعث من اخدود في وجه المدير:

- ندى ارفعي رأسك. حقاً صغيرة.

- كلا لست صغيرة، لست صغيرة، لست صغيرة!

وعدت اتطلع الى الثقب في جورب الشاب المقابل ثم التقيت وجه المدير الأسود.

ماذا يريد؟

اعرف ان الخنزير قد ارسل يستدعيه، واعرف ان الصف قد ملّ قوّتي. يريدونني كلبة كرفيقاتي، كهذه التي  
تشهق في الزاوية وتلك التي تسند وجهها على الجدار.

وعاد انبعث الصوت يسحقني:

- ندى قفي أولاً.

- لماذا؟ انني اسمعك من هنا.

وجعّر:

- احترمي المدير على الاقل.

فضحكت:

- انا حرة. لا احترم احداً.

فاذا الوجه الاسمر يتحول الى زرقة غامقة كأفق مكفهّر:

- والدك كان على حق عندما قال انك مجنونة. كان يجب ان ادعه يذهب بك الى العصفورية. انت بحاجة لطبيب.

لا استطيع التحمل:

- انا المجنونة؟ انت ووالدي مجنونان.

- اسكتي! وهجم علي كالدئب الجائع وانتشلني من المقعد ثم جرّني وراه وقذفني أتدحرج في الملعب كالوددة الرخوة.

وسمعته يعوي وهو يكاد يحطم الباب: "مجنونة وقحة... كلبة". ونظرت حولي: انا وحدي في الملعب. كلبة جائعة. والدي يكرهني لأنني مجنونة... والدي يكرهني!

شعرت بألم ينخر فخذي الايمن، ثم وجدت ان ثوبي ممزق والدم يسيل من جورة في ساقِي.

ومع انعصار قلبي شعرت بضعف يخدر مفاصلي فوقعت ارضاً وانسدلت غمامة سوداء على عيني.

نزعت جفنيّ عن نظرة بعيدة ارتطمت بوجه امي الرابض فوق رأسي وتكسرت على رأس تقترّب وتقترّب، فهزني الخوف وانا اميز المدير امامي.

اين انا؟

مددت يدي اتحسس جسدي تحت اللحاف، ومررت في جولتي على عيني. اين النظارات؟ كان يدفئ عنقي طوق صوفي فانا البس البيجاما.

اين انا؟

بحلقت في وجه امي فرأيت احمراراً في عينيها وفتحت عيني جيداً ثم حاولت ان اتكلم. لم ينبعث سوى صوت نحيل أشبه بالهمهمة.

انتصبت امامي صورة مرعبة، صورة جورة اللحم والدم السائل. خيل إلي ان ثوباً ممزقاً يرقص امامي فأرى من خلاله خيوطاً حمراء وقطع قيح، ارى دوداً يتحرك ويسبح في الجورة العميقة ثم يقترب بوز احمر، يقترب يزيج الثوب عن الجورة ويلعق القيح والدود.

دموعي تطرد حلقات الاخيلة وتترك لي منها وجه امي ويدها التي تربت على كتفي بهدوء وذكرى صوت يكسر الصمت دون ان أفهم منه الا: "كلبة... وقحة..."

- اين بابا؟

واجابني صوت ينادي: "خواجه فريد... لا تخف، ندى بخير، كلمها".

صوت من هذا؟ اين الدم؟

مددت يدي اتحسس فخذي فاذا بخرقه كبيرة تحبسه وشعرت بالم:

- آه، ماما، من عندنا؟

فبللت جبيني بقبلة وهي تقول وترتجف:

استاذك يا ندى والمدير.

كيف يمكن ان يكون استاذي والمدير هنا؟

واشرت للوجه الواقف فوقي: "اطردهما" وشدت اللحاف اطمر راسي واطمر معه خيوطاً حمراء تتشابك امامي ثم تنكشف عن جورة يلعق منها استاذي الخنزير. وادفن مع خيوط النور المتسللة من قرب عنقي خيال احرف وهي تكسر دوائر فتدور معها وتدور وتسرع وتدور الى ان تتكور في دورانها وتتحول الى حروف تسرع في الالتصاق لتلد: وقحة... كلبة...

أنا وقحة وكلبة، أما رفيقتي التي تخرج كل يوم مع زميل فهي رصينة وانسانة لأنها تهيء كنوز جسدها لعملية التعري والانتفاخ وبذر النسل.

تلك بقرة لا تمسها يد المدير لأنها اقنوم اما انا...

انا أرضى بكوم الاقاب، ولا اتعري وانتفخ وابذر النسل لأنني كيان ولأنني اكره الرجال واكره الاطفال.

\*\*\*\*\*



أي إله سيرضى عليّ؟ فتشت عنه في المرآة بين عيني، فتشت عنه في الجورة الرابضة في وجهي، فتشت عنه في الهالات السوداء عند انحدار جفني الاسفلين ثم تركته مع غرفتي وخرجت اغسل وجهي واتحسس عظام خديّ الناتئة امام المرآة وانفي الممتد طويلاً على غير عادة.

هل انا مريضة؟

كومت معجون الاسنان على الفرشاة ومررت به ضاحكة على وجهي وانفي وجبيني. امتلأت ضحكاً وانا أرنو لصورتي في المرآة.

صورتي تذكرني بحكايات الجن التي كانت تلوكها لي جدتي قبل اربع سنوات بفمها المغارة. لكن صورتي تتحول فجأة الى شيء يرعبني فانا مضطربة وقد أكون مجنونة. قد اكون مريضة. اذا اتى الآن والدي فماذا يقول عني؟ تصرفي هذا سيبرر اصراره على اخذي الى العصفورية...

حقاً لماذا لا اكون مجنونة؟ لماذا لا اكون عمياء؟ لماذا لا اكون مجرمة؟ لماذا لا اقتل والدي وأسكت صوته المبحوح الذي ما يزال يرعبني منذ سنوات؟ لماذا لا اخنق الكيان في رأس الخنزير الوسخ؟ لماذا لا اطبق عيني امي التي تتصلب امامي شاردة مشفقة؟

الخادمة تحمل لي فنجان الحليب، امي تلف يديها حول بطنها وتنظر الي وابي يصرخ بالخادمة: "هيئي لندی لوازمها. أسرعي".

يزعجني هذا الاهتمام. اريد ان اشعر انني قادرة على الحياة وحدي. دائماً هكذا يكبلونني بالمخاوف ويرفعون السدّ نفسه بيني وبين المسؤولية. فمتى اصبح كبيرة في نظر والدي؟ متى استحق ان احضر الحليب بنفسني واغلق النافذة متى اشاء دون اوامر امي؟ كلهم يرونني اقنوماً ضعيفاً وانا لا ادري متى اكتمل وانضج.

وحدقت في عيني الخادمة المسمرّة امامي. وجدت فيهما احمراراً ودلائل تعب مزمن.

هذه عبدة تبيع تعبها لتعيش. اعجبتني كلمة "لتعيش"! العيش ايضاً رجل ونحن نساء، العيش كيان ونحن اقانيم. العيش ضرورة تحميننا لنحيا وعندما نموت ننضج، نتحرر، نكبر.

لماذا لا اموت انا؟ لماذا لا اكبر واكتمل؟ والدي يرسلني الى المدرسة لأتعلّم وامي تأبى الا ان تحشو معدتي بالطعام لأعيش والخادمة وحدها تنظر اليّ بليوننة الذليل.

أجد شيئاً من الشبه بيني وبينها... كلانا عبد؛ كلانا مدفوع بقوة، غير اني مجبرة دون هدف وهي مجرورة بهدف. هي تعمل في بيت وانا في مدرسة هي تطيع لتربح وانا اطيع لانني اعجز عن الحسم. فكلمة "والا" تخنق في كل صدى للتمرد.

غرقت مرة ثانية في عينيها. وجدت فيهما هذه المرة هالة من السخرية الباكية فاستعجلت بلع البقية الباقية من الحليب ولم اقدفها هذه المرة بالكوب، بل شعرت برغبة للانحناء وان اضعه فوق "الصينية" على كفيها.

وشدني الخيط العريض من الشبه بيني وبين الخادمة لأتبعها الى المطبخ التهمها بعيني وهي تمسح الارض. غير ان والدي اخرجني واجبرني بقوة على حمل محفظتي لأقلع الى المدرسة مزوداً اياي بنصيحة مرة:

- كوني مطيعة يا عيني...

تمنيت لو استطيع ان افتح الباب واقدفه بالمحفظه غير اني كظمت غيظي وغرقت في الطريق الطويل.

اين امضي؟

المحفظه المحشوة بالكتب ترهقني، مع هذا احملها من البيت الى المدرسة لتقف هناك تعلمني. لماذا لا اتركها على هذا الرصيف؟ لماذا لا امزق الكتب باسناني وابعثرها اقانيم في هذا الزقاق؟ لكن البيت، لكن والدي، لكن الحاجة، لكن العيش، لكن كلمة "والا" تجبرني كلها على السير وأن اطوي سمعي على نصيحة والدي: "ندى كوني مطيعة".

والدي الكريه يفرض علي العبودية فلماذا اتمرد واكافح دون هدف؟

في طريقي تعثرت بمئات الناس يضحكون في طريقهم الى العمل، بأكثر من خادمة تحمل الحوائج، فأخذت اتمهل في مسيري... يلذ لي تأمل هذه الجموع المندفعة بهدف، هذه القوافل من الاقانيم، من النساء. لماذا لا ارمي كتبي واعمل خادمة؟ ألسنت عبدة اينما كنت؟ على الاقل اتقاضى في المنازل ثمن طاعتي مالا اتصرف به بحرية.

في ملعب المدرسة لم اجد الا بائع الكعك... عبداً آخر يعمل بهدف، والساعة تزحف مسرعة نحو الثامنة والنصف.

لقد تأخرت.

تأخري يلقي الرجفة في مفاصلي ويسوق اليّ صورة الذئب الجائع يهجم علي ويقذف بي في الملعب الفارغ كالبصقة الثقيلة. في ذلك اليوم كنت ايضاً متأخرة عن موعد بدء الصف فهل تتكرر الحادثة؟

خوفي يحدثني بالهرب الى الشارع، الى منزل رفيقة اعرفها فأقضي عندها الساعات التي تفصلني عن الظهر، ثم اقصد البيت واكذب واكذب وازعم انني كنت في المدرسة.

ولماذا لا اكذب؟

وقطع خيوط تأملي صوت المدير المتدفق من غرفة الادارة المجاورة: "الو - اهلاً - ندى؟.. لا لم تصل بعد... طيب... اذا تأخرت؟. طيب... مع السلامة...".

والدي يسأل عني بالتلفون... فهو يشك بي. اتراه لمح في عيني التردد؟ وهل يحسب ان باستطاعته ان يجبرني على الدخول الى الصف؟

كومت جسدي على حجر كبير قرب البوابة اقلّي بناء المدرسة ونوافذها وابوابها وبلاط الملعب. ففي خاطري شرود وافكار لا تقوى على الصمود ولا على التركيز في نقطة واحدة فلا عيناى تثبتان على نقطة ولا فكري ينحصر. هذا المرمي على العمود الحديدي يعبث بلفافة التبغ دون هدف تماماً كما ادور بحنكي على العلكة. هذا الرخو صرّار ماجن يقبض ثمن الفراغ راتباً ضخماً يقامر بنصفه ويبيع بالنصف الآخر كرامته وشرفه.

هل يجوز ان نسّمّي هذا الموبوء كياناً قائماً بذاته؟

قال لي الظل الذي يكسر النور امامي: "بلى انا كيان"... ورفعت نظري اعانده فاذا بخرخرة سعال مفتعلة تصم اذني والرجل الوسخ يرسم على شفثيه شوائب من الهزه:

- عجباً! ماذا تفعلين هنا؟

وخيل الي ان اصابع طويلة تمتد من عينيه الى رأسي، تشدني بشعري وترمي بي الى الطريق.

تفرست ملياً في وجهه، تفرست في عينيه فاذا التهكم فيهما قد تحول الى شلالات من الهزه الفاقع.

ماذا افعل هنا؟

وحبك يديه حول خصره في وقفة فسق ورخاوة. وتراخى يقطّع زاداً لشهوته من وجهي المشوي بالخجل وشفثي المتخمتمين بالخوف.

قرفت معاندة عينيه ولكن أين أمضي؟

وبسرعة، وكأنني اندفع نحو عملية انتحار، خنقت المحفظة بيدي وانقذت صوب الصف فأوقفني صوت فاقع، صوت الناظر الذائب رخاوة:

- انتبهى، طرف ثوبك مقلوب من الوراء.

واوقفتني قامة المدير تخرج من غرفة الادارة وتتجه نحوي. تطلعت بحيرة واحترت بين ان اقابل ثوبي المقلوب من الوراء عن فخذيّ العاريين وبين ان اتحدى النار المنصبة على وجهي من المدير الذائب.

واعتراني خجل مميت وانا انفض مؤخرة ثوبي وانفض معها عبثاً الحرقة من نفسي. فالمناظر الذي طوى  
ضحكة عريضة من مؤخرتي العارية خلف انحلالاً وناراً في عيني.

واتجه المدير نحوي قائلاً بحزم:

- تأخرت، اسرعي معي الى الصف، ساعة الرياضيات تكاد تنتهي.

لم اجب.

اشعر وانا اسير بطوق يشدني من عنقي كأنني كلبة اتبع هذه الخطوات العريضة المنتظمة، كأنني حيوان  
مكبّل، كأنني آلة تسيرني قدما المدير المخشخشتان امامي ويداه اللتان ترسمان في الهواء دوائر من الوهم.

صوته يتسلل الى اذني جافاً:

- ندى، انصحك. كوني هادئة. لم يبق امامك الا شهران وتقدمين للامتحان الرسمي. حرام ان تضيعي  
الوقت بالعناد. انت قوية بالعلوم وباللغات وعندك امل كبير في النجاح...

يا للسخافة! يا لسخافة النجاح!

واستقبلني اللوح بصورة هندسية تشوبها خيوط حمراء وصفراء، وهزني الخوف وانا اقابل المقعد الاول من  
الصف ثم الثاني فالثالث ثم اقابل المعلم اخيراً، يحمل بيده مسطرة ويشير اليّ بأن ادخل.

عندما غرت في المقعد زحفت العيون تتفحصني. الشبان يحملقون فيّ بوقاحة، والفتيات يتأملنني بانكسار  
محب. واحدة قالت لي: "الحمد لله على سلامتك". واخرى: "ان شاء الله تعافيت"، فأجبت الاثنتين برجفة من  
رأسي وتركت نظري يحاول ان يتكور حول المربع على اللوح.

كفى. العيون كلها تسرق النظر الي ومن العبث ان اعاندها. احس بناها تتغلغل في عظامي وتتململ في  
طريقها الى عيني.

ما لون غرابتي؟

وواجهت اللوح للمرة الاخيرة ويد غليظة تأتي برقعة بيضاء على كل ما عليه من خيوط. ورحت أتأمل اختفاء  
الصور وغموض الآثار المطموسة وخيل اليّ انني ارى نفسي على اللوح واليد الغليظة تسحبني من شعري  
لترمي بي في الملعب الفارغ.

واعلن الجرس بموسيقاه المزعجة انتهاء ساعة الرياضيات. وتأمّلت المعلم يتجه نحو الباب، ويداه تتمرغان بأثار الطباشور الملون، وعيناه تسابقان رجليه في شق طريق المرور، وعند العتبة يرشقني بنظرة حنون ويخنقي وراءه شيء من داخلي، يخنقني، يشد، يعصر...

هل ارتاح لهذا المعلم؟

بعد دقائق يهجم الخنزير الوسخ ثم يجمد عند الباب، يغلقه بتمهل، ينزه عينيه بين رؤوس التلاميذ، يصل اليّ فيمكث عندي دقائق مملة ثم يحرك شفتيه بلفظة تحية فرنسية ويتقدم.

نبهتني الضجة في الصف الى حركة الخوف التي قام بها التلامذة. رؤوسهم كلها مرتفعة وارجلهم منتصبه. هم يقفون ليكذبوا عليه وليغرقوه فرحاً.

لماذا لا اكذب؟

عندما هممت كانت المقاعد تستقبل مؤخرات التلامذة، فضحكت.

تذكرت الاسنان الصفراء والدود والاساخ، تذكرت المرأة والاقانيم ومهمة النسل وغرزت نظري بشدة ابحت عن عيني المعلم، عن آثار الاطفال والكيانات والرجولة. كان منحنيّاً فوق كتاب يفتش فيه عن ضالة: رأسه تقابلني بالشعر الاسود الغزير وبجورة بيضاء في الوسط وخصلة من الشعر شاردة عن القطيع... القشر الابيض مبعثر بين السواد وخيوط الغبار تتهدى بين الطيات الخفيفة.

عندما قفز الى الممر صارخاً بالفرنسية: " صفحة مئتان وتسع وعشرون" شهقت ثم اغلقت عيني اسمع صوتاً نحيفاً يتصاعد من الزاوية...

وشدني شوق لتلعب هذا الصوت الخائف. فهذا الاقنوم الناقص، صوت رجل! وبينما كنت اغرق في صورة الكتاب شدتني رفيقة من كتفي "أقراي" والمعلم في عينيه انتظار: "الصف بانتظارك يا آنسة".

شحنت كلمة "آنسة" معها قوافل من السخرية والهزء تركت ثورة وضيقاً في انفاسي وناراً تتصاعد ضباباً في عيني، وتسمرت شاردة بين المعلم والفراغ، ومرة اخرى سمعت الصوت المرتفع... كان ضجيجاً هذه المرة، ومع هذا لم اتحرك، بل حسبت ان قبيلة من الدود تسبح في طريقها الى فمي فارتجفت وشعرت برغبة لأتقياً وانا اقابل من جديد الاسنان الصفراء وشلال البصاق الموزع على رؤوس التلاميذ، فطمرت رأسي اتمنى لو أغرق في المقعد او تبتلعني الارض لتريحني من هذه المشاهد. وبعد دقائق كان صوت تلميذة يستأنف القراءة وعينا الاستاذ تبتلعان الثورة اللجوجة فيّ.

لماذا تخضع هذه الفتاة؟ لماذا تستسلم؟ انها اقنوم ناقص، بقرة، اقنوم.

وما معنى: اقموم؟

دودة طفيلية؟ فطر جائع؟ ساعد مكسور؟ طائر بلا جناح؟ وفي اي امعاء اعيش، انا الاقموم؟ على اي جذع  
اتكى؟ وبأي اصبع اتمسك بالحياة وبأي جناح احلق؟

يشوقني ان اتحرر من الوهم: وهمي بأنني اقموم، وهمي بكرهي للمرأة فانا امرأة، وانا كيان مستقل ما دمت لن  
اتعري ولن احب في سرير ولن انتفخ ولن ابذر نسلًا، وما دمت لن احب الاطفال.

\*\*\*\*\*



اين امضي؟

طردت الفكرة السوداء من رأسي وعدت أتأمل الوجوه: فتاة تحمل علبة، عتال ينوء تحت سلة... قوافل مخلوقات تسير بهدف معين.

وانا؟

لم ادر الا واسناني تعض اصابعي، واظافري تشد على الثوب المنفوخ بالهواء. تصنمت وسط المارة:

الى اين؟

واختفت الجماهير من امامي. وخيل إلي انني خادمة في منزل ثري اقبض كل شهر رزمة دراهم ابتاع بها الحرية والكيان والاستقلال.

والى أين؟

الناس كلهم يسألونني بعيونهم: الى أين، الى أين، الى اين؟ اغلقت اذني عن العواء وعدت أجر قدمي ثم اضرب الرصيف، اكسر الرصيف، فكأن على الرصيف رجلاً انتقم منه.

وظللت امشي، اضيَع نفسي في عيون المارة وفي احذيتهم، في جواربهم، في سلال العتالة ونظارات الهاربين من الغبار، في تسريحات الاقانيم المبتذلة بسيرها وانحلالها.

ولفحتني، وانا امر من امام مطعم، رائحة سمن ورأيت الخادم يقلي شرائح لحم. ومن المحل الثاني صفعني صوت ينبعث مائعاً يدلح امرأة. وفي المحل الثالث قهقهة عالية وصدى صفع وتصفيق.

كل هذه الجموع تعمل لتعيش، لتعانى الموت، وانا ماذا افعل؟ لا شيء. أهرب دون هدف من ابي، من الخنزير الوسخ، من الحياة كلها، فلم لا أموت؟

هذه شاحنة بترول تمر بسرعة، فحركتني رغبة لأرتمي تحت عجلاتها، لكنني تراجع، ساعة تقتلني الشاحنة أكون قد تثبت ضعفي بيدي، اكون قد التجأت لرجل يخلصني من الوجود.

وازاحني رجل بيده: "طريق يا اختي"، وبينما كنت اتراجع، دست حذاء التاجر الواقف ورأني فاعترائني خجل وضعف ونقلت نظري بين الرجل الذي ازاحني بيده والآخر الذي انحنى ينفض الغبار عن حذائه المخملي.

ماذا افعل هنا؟

وعدت الى ضرب الرصيف بحذائي فانا حجر عثرة في طريق المارة، انا امرأة، جسد فارغ وحجر...

احب لو الصق كل صور الاقانيم على جبتهى واسير حتى النهاية اعاند واحارب وادوس الانوف المرتفعة والاسنان الصفراء المدودة.

واكملت اسير.

وهبّ هواء بارد فلففت عنقى جيداً بالشال الابيض القطنى وعدت الى السير، الى المضى في الضياع.

رأيت نورية تحمل زادها على ظهرها وتركض. رأيت صبيّاً وسخاً يتسلل من بين الارجل المتحركة بجنون. تأملت الصخب السائر. تأملت الابنية الشاهقة والنراجيل المصنفة على الشرفات، قلت لنفسى ما معنى الحياة؟ ما معنى مسيرى؟

وعدت امشى، اركض كما كانت تفعل النورية، اتسلل من بين الارجل كما كان يفعل الصبي الوسخ، وهممت ان اخرخر كما تفعل النرجيلة بين يدي ذلك الرجل لكنى عدلت. النرجيلة بين يدي رجل، النرجيلة اقنوم، النرجيلة وريد يُمص بجنون.

وعندما بدأت الانوار تضيء النواذ ارتفع صوت المذياع قري يردد اغنية احبها، فاقتربت من طرف الرصيف، ثم شممت الحائط الاسود واتكأت عليه.

جوع غريب يشدنى الى هذا الحائط، فاتمنى لو ارمى برأسى عليه، لو استظل به الى الابد.

علكت وهم الاستظلال وانا امر بيدي على الحجارة النائثة. انها وسخة وسوداء ومنتنة. تراجعت فجأة، تذكرت الاسنان الصفراء وحفر الدود. تذكرت: الحائط رجل يحمينى. تذكرت: اقف الآن في ظلال كيان! فهريت بسرعة اندس بين الجموع الآوية الى منازلها ليخرج كيانى من قمقه.

ووقع نظري على خادمة جميلة تجر بيدها طفلاً رائعاً، وتتمتم معه كلمات هزيلة، تأمره ان يسرع حتى لا يدركه المطر. واخذت تهرب امامى وانا اتبعها بكل قوتى، هي تركض وانا اركض هي تركض وانا اركض حتى ابتلعها مدخل كبير.

ووقفت عنده اشيع الخادمة وهي تجر الطفل على درج رخامى. وفتحت اذنى للصراخ، للضحكات، للكلمات التي ارتفعت: "آه... آه... تعبت".

"يا الله... وصلنا... وصلنا يا حبيبي".

جمدت.

يهزني شعور غريب ويهدني ضعف هائل. فتحت عيني، فتحت عيني جيداً. وانا ابحت عن الخادمة والطفل سمعت صدى قبلة حارة وصوت تحية. ونظرت الباب الكبير والدرج الرخامي والحائط المقابل. تأملت الجو الهائج، والانوار المكبوتة، والارجل الآوية الى المنازل. استدرت نحو الشارع العريض، نحو المخازن المغلقة ارتفعت بنظري ابحت عن النراجيل المصفوفة على الشرفات. عدت نحو الباب الكبير والدرج الرخامي. عدت احملق في الحائط المقابل. اين الطفل؟ اين الخادمة؟ اين الطفل؟

وصل الطفل الى البيت، وصل الى الدفء، وصل الى الحماية.

ودون ان ادري ادرت ظهري وبدأت اركض. وهبط الليل مع تكاثف الغيوم وانا اركض. وهدني التعب وانا اركض، وبقيت اركض دون هدف!

واما بوابة بيتنا المضاء خارت قواي فارتميت على الرصيف فاسرع اليّ شبح اسود، شبح يتضخم كلما اقترب. واذا بي اميز وجه الخادمة وشفتيها الراقصتين بسؤال: "اين كنت؟".

اين كنت؟.

امي التي استبد بها الفرع تسألني اين كنت وغرفتي التائهة تخنقي: اين كنت، والدفء في سريري يخنقني اين كنت، اين كنت انا؟ لماذا يلفني الهدوء تحت هذا السقف ولماذا تخدرني الحماية والاستقرار؟

خلعت الشال فانا امقت الآن هذا الدفء. اريد ان ابرد في هذا البيت، اريد الا استقر فيه لكن المرأة تقابلني بالهزيمة، بالدم الموشك على التدفق من وجهي وغياب الهالات السوداء تحت عيني.

يمزقني قهراً هذا الوجه: وجهي، ولا يرضيني الا صوت الصفعات المترددة عليه من يدي وآثار الاظافر في صدري واصابعي المتشابكة بسمّ حول مقبض النافذة تحطمه اذا هدد بالصمود.

آه! الآن ينعشني هذا السيل من الهواء والذرات الحادة التي تمزقني. الآن اعيش ذكرى الشارع والهواء الذي يحرر شعري من نظامه فيتدحرج البرد على جسدي مخلفاً فيه رجفة قارصة تحوجني من جديد للكنزة والشال فلا افعل، حتى اشعر بالبرد هنا، تحت سقف هذا البيت.

وهجم والدي بعد ما كاد يحطم الباب وانحتى فوقي وانا اتكورّ تحت اللحاف ثم نفث في وجهي:

- حبيبتي، ندى، اين كنت؟ ما بك؟

- لا شيء، احس بصداع، دعني وحدي. وراح يبتعد: عيناه معلقتان في عيني ورأسي وجورة الصداع وبريق مؤلم يجول في عينيه كالدموع.

لماذا يبكي والدي؟ لماذا يبكي الرجل؟

طردت عني السؤال مريلة الخادمة الزرقاء التي تعانق صدرها والشقوق المتشعبة في اصابعها والحزم النافر مع اوردة يديها الرزقاوين وهي تترك على يدي صينية الطعام.

حرة انا مع هذا الكوب من الحساء احركه بسرعة فيتطاير على اللحاف والشرشف وعلى قميصي واتابع التحريك حتى يختفي السمن عن وجهه فيدور السائل ويدور حتى يتجمع في الوسط، في نقطة معينة في الوسط.

"لا... قالت امي وارتمت على صدري تقبلني وعلى محياها مزيج من الخيوط المتشابكة دون قرار.

وأزحت رأسها عني: "ماما اتركيني" فغصصت بالكلمة الاخيرة والدموع تظفر من عينيها.

تمنيت لو عادت رأسها تعصر رأسي، تمنيت لو عادت تظمرني بصدرها وتمتصني بقبلة وانتهي.

انفجرت واياها نبكي. فتشت عن قساوتي لاحبس الدموع. استتجدت بثورتي لاحبس انفاسي. لكن لا استطيع.

امي وحدها تشدني لاحيا، لكنها لن تستطيع ان تستغل هذه الدموع لتدفعني الى التعري بين يدي رجل، ما دمت اكره والدي واکره المسوخ التي عرفتھا في محيطه، واکره الاطفال.

\*\*\*\*\*



فبعد قليل سيهجم والدي ليأمرني بالذهاب الى المدرسة فأقف بوجهه افهمه ان المدرسة تؤلمني وتضايقني. واذا جنّ جنونه واخذ يفرض علي رغبته اسكت واترك الغرفة واخرج تماماً كما فعلت امس دون ان اعود... افتش عن ثري كبير يقبلني خادمة في بيته او عن تاجر اعمال عنده او اذهب الى بيروت حيث لا بد ان اجد عملاً.

احلام اليقظة ميزة عالية لحياتي تطول وتضم ساعات طويلة من عمري ثم تختفي ووراءها هزة نفسي وحيرة وبلبله فهل استطيع انا الوحيدة المدللة ان اقوم بواجبات خادمة؟ وهل اقوى ان اكون مثال الفتاة الهادئة والاقنوم الخاضع في محل تجاري؟ وفي بيروت ماذا ينتظرنني غير اجر بسيط يجبرني ان اقتصد حتى اقتل الكماليات؟ والى الجحيم ايتها الكماليات...

ففي غرفة على احد سطوح المدينة لا يلزمني سرير ولا مرآة تناطح السقف ولا دولاب يغص الالبسة. ثوب او ثوبان وحذاء واحد وفراش على الارض وسراج ضئيل وحرية كبيرة كبيرة... اشياء بسيطة لكنها تكوّن ثروة ضخمة بالنسبة اليّ فيكفيني ان اقوى على التصرف بمخطط من صناعي. يكفيني ان اسير دون رقيب واجلس بعيدة عن الاسنان الصفراء وجور الدود والاوساخ...

اسمع الساعة تطلق صرختها الاولى. طن - فتنقطع اوتار الصوت امامي وتراً وتراً وتتكرس وتخر مصروعة في قعر رأسي لتهب الحياة افكاراً جديدة: اعتقد ان الساعة لن تكمل صراخها... لكنها تكمل: طن... هل لا تزال السابعة؟ وتكمل طن...

هل تتوقف؟ وتكمل... طن.

ثمانى طنات؟ - كبلني الخوف. ثمانى طنات تعني ان المدرسة فات موعدها دون ان يأتي والدي.

لماذا؟... كيف؟... رأسي تصرخ؟ - وهي تدور وتدور بغضب يلتهب حقداً على المدرسة على الباب على نفسي...

لماذا لم يأت والدي! يجيبي انهيار يفتنتني: فقد فشلت الخطة، فشلت، والفشل يكرسح ابداً كل احلامي فتدفعني لانتقم.

والآن اود لو انتقم بالركض: اركض في البيت، افتش عن امي، اخنقها لتدلني على الرسالة فانا اعرف تماماً انها وراء امسك والدي عن دعوتي للذهاب الى المدرسة...

وعلى السرير يتمرمغ معي سؤال: لماذا تفشل كل خططي! مثل هذا السؤال لا يعيش مع امي لأنها تخنقه "بهكذا يريد الله" ومع ابي يخرسه وهم آخر: "هذه مشيئة القدر" اما انا فساظل اتساءل لماذا تفشل خططي! لانني اسمي الفشل فشلاً.

الشمس مريضة مثلي وشاحبة رغم انتصابها القوي لان الغيوم تصدها... اشفق عليها وافكر: كيف تستطيع هذه القوية ان تنتقم! اود لو اقول لها: انحجبي، واود لو اراها تغوص الى الابد في بطن الزوال. لكن اللحم يصدمني: الشمس تنتقم بانحجابها اما انا فماذا يعني انحجابي وعلى من يؤثر! الشمس ضرورة وانا ضعف، انا بصفة تريح اذا اختفت... وعلى ان اريح، علي اطفح من فم بيتي كله.

- ندى تتناولين الفطور هنا في غرفة الطعام؟

رأس الخادمة ممدودة من الباب فرمقتها بغضب وقلت: "هنا في الغرفة" ثم انتصبت أرتب غطاء السرير للمرة الاولى في حياتي.

كانت الخادمة تقوم عني بهذا العمل وترتب غرفتي وسريري وثيابي. كانت في ايام الشتاء الباردة تتحني لتغسل قدمي عند المساء بالماء الساخن، كانت تدلني كطفلة عاجزة تولت هي الوصاية عليها. واليوم لن ادعها تتدخل في شؤوني. ساتولى الحكم واسد نوافذ ضعفي فانا قوية وباستطاعتي ان اعطي بنفسني.

هذبت فرشخة ساقي للبيجاما على العمود، واعدت المشط المرمي ارضاً الى صوابه، ارجعت قنينة ماء الكولونيا الى مستوى رفيقاتها. مسحت المرأة الصغيرة بلمي وعلقتها على الحائط.

مسدت من جديد غطاء السرير الوردي. عدت واحكمت جيداً ازاحة الستائر عن النافذة ووقفت عند الباب اتفحص بعثرتي في الغرفة: نتفة مني على غطاء السرير المبسط ونتفة على طاولة الزينة ونتفة على الستائر المطوية باتقان ونتفة على البيجاما المنتصبة بخجل... الغرفة كلها تصفق وتقول لي: نجحت! نجحت!

هل نجحت؟...

تتقصني بعد اكف كثيرة لتعلن لي النجاح، النقص يفزعني فقد لا اصل وامامي المدرسة والخنزير الوسخ، والذئب الجائع، والوالدي المحموم بعناد.

انتفضت اجر قدمي في الغرفة من طرف لطرف اتحرك بحيرة... بحيرة ضائعة دون هدف. وقفت قرب السرير: ماذا افعل؟ تقدم صوب المرأة: ماذا افعل؟ رجعت حتى اصطدمت بعمود البيجاما: ماذا افعل؟ ماذا افعل انا؟ يجيبني السقف: انا ابعثر نفسي لافتش عن المصير. وما هو مصير البعثة والتفكك؟

بعثرة، تفكك، ضياع، فراغ، نهاية، كلمات رصفتها واحدة فوق اخرى: ساقان وجسم ورقبة ورأس ففتح الجسد عينيه واذا بي اصطدم بقامتي تنتصب امامي.

نفرت دمة ساخنة من عيني ثم غارت وغارت حتى وصلت الى قعر دهشتي وانا اتصفح انواع الاطعمة الموضوعية امامي. لماذا احضرت لي الخادمة لهماً بارداً مع الفطور وانا اقتياً من رائحته؟ لماذا ضيقت الطبق

بالزبدة والمربي، هل تعتقد امي اننا سأجاملها هي بلقمة ووالدي بلقمة، كما كنت افعل! انا وحدي حرة، وحدي في وضع مخطط معين بيدي: "عليك ايتها اليد ان تمزقي الرغيف الابيض ثم تمتدي الى الصحن المنزوي في الزاوية. قريبة - هكذا - قريبة اكثر - رأيت ما في داخله؟ شيء اسود معكر بحبات سمس بيضاء شقراء يلمع حولها زيت اخضر... نعم جورّي اللقمة ودعيها تبتلع حبات الزعتر لتبصقها في فمي فانا احبه ما دامت امي تكره ان التهمه وما دامت تلمح في وجهي آثار سوداء، فانا سمراء.

يدي تلبّي رغبات جوعي فانا لم آكل مرة في حياتي كهذه المرة. امضغ الطعام بسرعة وابلعه دون تروٍ وأجن في تطلعي الى الرغيف. اين خلق كل هذا النهم؟

فكرة "نهم" احسبها تمشي في دمي وتلمل في رأسي. فجعي للطعام فجعي للعمل، فجعي للتححرر، فجعي للهرب من الاسنان الصفراء، فجعي للكيان القائم بذاته.

ترى هل ينتهي هذا الفجع؟ ما الذي سيشبع فجعي للكيان!

تمددت على السرير الوك افكاري: فتاة الثامنة عشرة اي المجالات تدخله! اريد محيطاً، اريد كلباً نظيفاً يقول لي ان "تلك" "كهذا" "وذاك"، اريد عالماً يعترف بانني انسان كامل لا تتقصه الحماية، اريد كياناً، هذا يعني ان اخلق من نفسي انساناً جديداً.

الثقافة! انها تفتح جميع الابواب امامي!

ارتجفت، ارتقصت اعصابي، احسست جنوناً لاهباً يدب في اعماقي، هزنتي رغبة لأضرب رأسي المحموم، لأدوس افكاري المجنونة، لأفرق العزم الجديد، لأنترع من رأسي فكرة الكيان...

لا اريد ان اتعلم واعدو الى المدرسة، الى ظلال الخنزير الوسخ والكلب النظيف والذئب الجائع!

لماذا افتش عن الكيان؟ انا امرأة، انا اقنوم ارضى بأقل اقنوم ولا اطبق رؤية المدرسة.

عندما انتصبت كانت يداي تمسكان بطوق ثوبي. ورحت ازرع الغرفة بعصية: انا بصقة وحجر جامد، ودودة يأكلها خنزير...

ارتجفت. خيل الي انني ارى فراشاً وامرأة ودماً. خيل الي انني ارى اري قيئاً ودوداً ووسخاً... ارتجفت من جديد. هزرت رأسي انفض عنه الصور البشعة. يلاحقني الفراش والمرأة والدم...

كدت انفجر. كدت اتطاير شرارات "محرقة" تمتد وتمتد لتشعل الغرفة كلها. ماذا افعل. ما هذا الذي يطوقني. ورأيت امامي الفراش والمرأة والدم! عند النافذة فتشت عن الضوء فلم اجد الا الفراش، والمرأة والدم. وادرت

رأسي... رأيت الغرفة تطفو بالدم... وحاولت ان ارفع نفسي، ان اطير، ان احلق في الجو حتى لا يلوثني الدم، لكن احسست بانني اهبط واغرق في الدم.

وهربت من الغرفة شلالات الدم تركض ورائي. اغلقت الباب. ظل الدم يركض، هربت من البيت وظل الدم يركض. وعلى حافة البركة في الحديقة رأيت الدم يغلي بين الماء ويتصاعد.

كيف اتخلص من خيوط الدم؟

كيف اتخلص من لاجاة امي وهي تسألني عن الصداع ونشاطي؟

اجبتها بركلة واندست داخل المطبخ ارتطم بالخادمة تنهش المجلى بالفرشاة. يرذني القرف الى الورا الى الهرب من الخادمة من رائحة النتن المنبعثة من الفرشاة. من سمنة جسدها، من مصيرها المتمثل بالفرش والمراة والدم!

في الغرفة حظيت بنوع من الهدوء.

لماذا اغرق في الجنون، في خيالات الفرش والنساء والدم.

يربطني انا المراة خيط رفيع استطيع ان اقطعها واطل انساناً. اما الكيان فمن يخلقه لي. سد ضخم يقبع بوجهي، سد الثقافة فتثور اعصابي لأجله واود لو اخنق به فجعي للكيان وبخيالات المدرسة والتشرد والتشائم.

تعاودني كلمة المدير: "ندى، انصحك، كوني هادئة. حرام؛ انت قوية وامامك امل كبير بالنجاح".

هل انا قوية. اليس جريمة ان اضيع الوقت بالعناد.

اجتررت كلمة المدير مرات فسأقت الي عباقاً من الهدوء: لماذا لا اكمل علمي بمفردي.

تشبثت بالفكرة من عنقها كي لا تفلت وقررت نهائياً ان ابدأ بالدرس.

وعلى جبين كتاب الهندسة رأيت المستقبل يبسط لي جناحيه... بعد البكالوريا استطيع ان اصبح انساناً. بعد البكالوريا يحق لي ان اقف بوجه الخنزير الوسخ وادير ظهري باستخفاف للصرار الماجن واجادل بسهولة الكلب النظيف. بعد البكالوريا اصبح كياناً.

مسحت الغبار عن نظارتي البيضاوين وبدأت ادرس.

تربطني بالكتاب ارادة قوية في ان احلب منه غذاء كيانني واتحول الى رغبة قوية وجبهة عنيدة وامراة تفوق الرجال بكيانها.

مضت ثلاث ساعات ولم ارفع عيني عن الكتاب ولم اقطع تفكيري في الهندسة. وعندما دخلت الخادمة تذكرني بالغداء كان العرق يتصبب مني بغزارة.

الدرس مضمّنٍ لكنه جذاب، الدرس قهوة مرة.

بعد الظهر مكثت اربع ساعات أعب من هذه المرارة المائعة حتى ضاقت انفاسي فسحبت مجلة نسائية فرنسية من المكتبة وهبطت الدرجات القليلة الى حافة البركة.

المجلة حافلة بصور الاجساد الرخوة تعرض جمالها للبيع، للفرجة، اجساد عارية قدرة، فاجرة كبضاعة كاسدة تباع بتنزيلات في الاسعار.

الاجساد تذكرني برفيقاتي الرخوات في المدرسة. واحدة منهن تحشو ثدييها قطناً لتشرّب الرمانتان باغراء عن البلاط الهفاهف. واخرى تكس الدنتيل تحت ثوبها ليرفرف مناغياً تحت الطائر الهارب. واخرى تصب العطر في صدرها فينادي: عطر للشم. واخرى تدلق الاشقر المغناج على الكتفين المجورتين المهزورتين، فتنادي الكتفان: للعض!

اقانيم مبتذلة...

قذفت بالمجلة فحطت على السور، على حريات السور، وغرز الرمح عين المرأة المنتصبّة على الغلاف فتمنيت لو ينفذ حتى نخاع الممثل الذائب في اغنية...

بعد البكالوريا سيحمل لي البريد كل صباح جريدة محترمة غير هذه، فاقبض منها زاد كياني واغرق فيها هكذا - تماماً كأبي - أغرق في الاريكة، ارفع قدمي على الحائط، انشر الورقات على الساقين المقوسين وابدأ باستمداد الفائدة من السياسة فأجادل ورأسي خزان وقائع وأظل اجادل.

والآن اندفع لمجادلة والدي في غرفة الطعام!

والدي مهتم لحد ما بالسياسة وامي العبد الخائف تجد ارتياحاً في حيك الاسئلة السخيفة توجهها للزوج المطاع.

وحدي اقاوم هذه الليلة. قوتي تدفعني للجدال ورفع كلمتي دون خوف دون تراجع امام حدة تتطاير بصاقاً من وجه ابي، واقاوم. ويخيل للذي يسمعي انني وهبت كل عمري للسياسة وانا في سري أحرار واتعجب من أين أتيت بهذه الجرأة. من أين جمعت هذه المعلومات.

والدي يتعجب وانا اتميز حدة واثرت عن منافع الاستقلال والديموقراطية وحقوق الفرد، وهو يحاول ان يقنعني ان الانتداب افضل لبلد فوضوي كلبنان وان من مصلحة المسيحيين ان تحتضنهم فرنسا فتحفظ كرامتهم وتبقي لهم الصليب عالياً.

كدت اقول له: انت جبان. لكنني جربت فبدلتها بكلمة: "سخافة" وضحكت.

والذي طانفي بدمه وامي تدس انفها في الجدال: "ليت فرنسا تعود"، فيسلبها والدي الحديث "اذا صادقتنا الولايات المتحدة شبع الفقراء..."

في هذا الجو العائب بالسخافة أشعر انني شيء مهم في الحياة والمس شيئاً في داخلي يحركني لارتفع واشمخ برأسي الى فوق، الى فوق ايضاً الى فوق والناس ووالدي وامي من تحتي اقزام اعتادت اطواق الحديد فاشتاقتها.

يا لحلاوة التحرر!

يغمرنى التفاؤل ويملأني املاً بأن اشتغل يوماً واقبض ثمن تعبي فاشتري الحرية بعريقي واصبح سعيدة افتح بيتاً حديثاً استقبل فيه الصديقات. واكفر بلقاء السرير واطل اعاند الرجال واكره الاطفال.

\*\*\*\*\*



للغضب عند والدي نتيجة مزدوجة: تعب يستبد به وحرمان يصيب امي. ونتيجة هذا التهجم في البيت ترجح كفتي وابتعد عن الجو المتوتر.

ذهابي سيحرمني الارث الضخم، والدي سيستعمل هذا السلاح ليعيدني الى حظيرته. والدي لا يملك الا المال، الا الاسهم الكثيرة في البنوك، الا البناية القديمة في طرف شارع الحمراء، الا الفيلا المؤجرة لأمير سعودي في عاليه، الا البيت الذي نسكنه الان هنا في طرابلس.

انا وحيدة... وحيدة لاهلي. حبلت امي وكان الجنين صبياً، لكنها وضعت بالعرس، وجاء ميتاً، ومنعوها ان تعود وتحبل.

كم تأثر والدي! كم بكى! كم انتحب!

سمعتة مرة: "لو كانت ندى شاباً لهانت المصيبة".

ندى فتاة، انا فتاة، انا ضعف واقتوم وعار وكارثة في نظر والدي.

لو كانت ندى شاباً، لو كنت شاباً لورثت المال، كله، اما انا الفتاة فلا. الفتاة لا ترث كل شيء، الفتاة اقنوم، نصف شاب بل اقل، ينبوع من العار والذل والهم.

لماذا؟

- ولماذا لا نشترى قطعة الارض من جارنا في البقاع. اراضي البقاع خيرة... كانت تقول امي لوالدي قبل اكثر من شهر...

وكان جوابه:

- لماذا؟ لينعم بها الصهر يا مجنونة!

الصهر زوجي انا...

يعتقد انني سأتزوج وسأنجب وسأسهر الليلي وحدي على صراخ الطفل وانطوي عند قدمي الزوج حين يحدجني بنظرة قاسية.

يعتقد انني سأتعطر لأجل ضبع كرية مثله حتى يشاركني الفراش ويملاً فراغ ليلى بالشخير وبراءة فمه المنتن.

تنفضت اضحك وامسح دمة تسللت، وحشرت انفي الصغير بين صفحات الكتاب.

اشعر كأن الصفحات فرصة سانحة تتحرك بسرعة من امامي لتتركني فتقول لي: اسرعي، عبي مني الفائدة ولا تتمهلي.

لا اتمهل. اتحمل الالم في عيني والصداع والجوع والدوار ورغبة التقيؤ لادرس كل صباح وكل مساء، لادرس كس ساعة حتى في الليل حتى وانا أكل.

واظل ادرس يوماً ويومين، اسبوعاً واسبوعين شهراً واكثر حتى تفرغ الكتب امامي ويغصّ رأسي بمحتوياتها...  
واظل ادرس وادرس كما يدمن أخ رفيقة لي تعاطي الهيرويين.

حاول والدي ان يرفع رأسي عن الكتاب وانا في الصالون، فحدثني عن ارزاقه وفمه ينتفخ بالطعام ثم يتراقص ويتأرجح حتى يفرغ. وتمطى يداعب ذقني النحيلة بكفه:

- اتذهبين معي الى عاليه مدى يومين؟

قولي نعم اذا كنت تحبينني.

- كلا... مشغولة...

"مشغولة" تمزق قلب والدي، تمؤلمه، تميته، تتبئه انه آت على صاعقة في البيت، على فراغ غرفة، على هرب الابنة الوحيدة من المنزل.

لا يجسر مرة واحدة ان يجادلني او يسألني عما يشغلني. يكتفي بأن يهز رأسه، يرقص صوته، يحدج امي بنظرة قاسية ثم يطوي فوطة الطعام ويخرج الى الحديقة.

هل يبكي في الحديقة؟ هل يتألم؟ هل يغضب على امي؟ هل يتهم الذئب الجائع بانقطاعي عنه!

أجد لذة في تخيل والدي وحده في الحديقة على المقعد الخشبي رأسه بين يديه، افكاره معلقة بالفتاة الوحيدة، ضميره يعذبه، ودموعه تسقي وجهه الذي جف قبل عشرات السنين.

والدي يتعذب، وامى تتعذب، والبيت كله يتألم وانا اريد ان يتعذب والدي، اريد ان تحرم امي، اريد ان يتأزم جو البيت.

بي رغبة للهزة بالدموع، بصراخ الحرمان. يجب ان يعرف والدي واقع جريمته وتشعر امي ان المرأة تستطيع ان تكون كيئناً.

وما هل الحل؟

عندما قال لي والدي "كفاك ما درست" قلت له: "الم تجرني جرأاً الى المدرسة...".

عندما سألتني امي: "ماذا ينفعلك كل هذا الدرس." صرخت بوجهها "المدير قذفني كالكلبة في الملعب ومزق لحمي بالمسمار الناشز من المعقد مع هذا ضحيّة بكرامتي انت ووالدي وارجعتماني الى المدرسة".

عندما قالت الخادمة شفقة: "لماذا تتعبين نفسك هكذا يا حبيبتي." قلت لها: "لاقطع الخيط الذي يشدني الى مصيرك"، مصير الفراش والمرأة والدم.

ما الحل؟

ابي وامي يفتشان عنه كل ليلة في الفراش.

- الافضل ان ندخل في حياة ندى بعض الصديقات. هكذا قالت لي ابنة المحامي جارنا التي تدرس في الجامعة.

- لكنها لا تقبل.

- يجب ان نجرب حتى نريحها، حتى ننستر من كلام الناس. ستلوث شرفي هذه العنيدة، هذه الملعونة.

وتجيبه امي بصوتها الخائف من شراسة الضبع المقدس قريها:

- الحق علينا، كان يجب ان نعاملها منذ البداية باللين.

- اي لين. يجع الصوت الضخم. سأريها بعد البكالوريا كيف تكون سلطة الاب!

- لا لا يا فريد، ارجوك، نفقدها هكذا الى الابد.

- لتذهب مع الشيطان، شرفي اهم من جميع نساء الارض.

كل ليلة يفتل والدي عضلاته الوهمية فيغضب ويدير ظهره لأمي وينام فتلتصق هي به، تلحف صدرها بظهره، تحشر رجليها بين قدميه، تنثر الشعر التعب على كتفيه وهو نائم يشخر كالثور الخائر تبعاً دون ان يلبي نداء الجسد المحروم.

هذه الازمة خلقتها انا... وسندوم. بعد نصف شهر تنتهي الهدنة التي قطعها لي والدي.

بعد البكالوريا سيرفع يده ليضربني ليعيدني الى الصراط المستقيم، لينقذ شرفه فتهوي أم الاصابع الضخمة على الفراغ، على جثة شرفه، على اشلاء كرامته، ويتحدث الناس: ابنة فريد خوري تشتغل - يظهر انه يبخل عليها بالمال.

عندما يواجه والدي هذه الثورة اكون انا في بيروت امسح عرقي الف مرة في النهار لاقبض في نهايته بضع ليرات اوفرها لاصنع بها بيتاً واثاثاً وسيارة، وكياناً.

تتمثل امامي الحادثة كما ستجري:

تشد امني شعرها، تعض اصابعها، تمزق صدرها في وجه والدي:

"الحق عليك انت".

وهو يصبر، يصبر، يجيب بلوعة ثم يثور ويسحب الحزام الجلدي عن الخصر المنتفخ كبطن حبلى وينهال به على الجسد الابيض المترهل ثم يبدأ بالصراخ وتفور الرغوة من فمه وتوزع، فيحطم الاواني الخزفية في الصالون، ويخبط الارض ويلوح في الفضاء بكفه كافرأ يشتم امني واهلها ونسلها ثم يرتمي على كرسيه الخاص ويضع رأسه بين يديه ويبكي:

"لو كانت ندى شاباً لهانت المصيبة".

لماذا نشترى قطعة الارض؟ لينعم بها الصهر!؟

وامي تبكي:

"عتبة البيت تحزن عندما تخلق البنث".

"اذا لم تجد البنث اضرب الارض التي سارت عليها".

آه لن تطبق امني حقاً كلماتها فتنهال بالسياط على الارض التي اسير عليها، وتغطي العتبة بوشاح اسود حزناً على وجودي.

آه كم اغصّ بالضحك والهزء!

ماذا يفعل والدي في غيابي؟

يطفئ جوعه في أحضان فيرا الغاوية الشقراء التي يحمل رسمها وتوقيعها في محفظته. اما أمي...

كم ستحرم امني! ستقضي معظم لياليها في الفراش الفارغ تفتش عبثاً عن الصدر المحرش، عن الرأس الصلعاء المدورة حتى تبكي، تعض الوسادة، تمزق اللحاف جوعاً، وتصب اللعنة علي، على جسدي هذا الهزيل الواقف امام المرأة.

وامام المرأة خوف هائل:

الهالات السوداء تزداد اتساعاً حول عيني ووجهي يشحب بتزايد.

حياتي كلها قلق. يشدني فقط الى الراحة خيط رفيع واحد هو ارادتي النافذة في البيت، فالخادمة بدأت تناديني "يا معلمتي" وتجيّب: "امرك" وامي تستشيرني كل صباح "ماذا تأكلين اليوم؟"

مسكينة امي انها تنهار امام نظراتي الواجمة واجوبتي الهادئة المستخفة.

لو لم ادرس لكان علي ان اظل مثلها في البيت، اتمزق قهراً من سلطة والدي، اقف وراءه بخوف كلما دخل الى البيت انتظره حتى يجلس، يخلع حذاءه يشد جوربيه الننتين ويقذفهما بوجهي أمراً: "خذيهما الى الخادمة".

لو لم ادرس لكان علي ان اخضع لجنونه فاوافق معه على ان الانتداب افضل للبنان من الاستقلال، وان لفرنسا الحق الاول في الجزائر، وان الولايات المتحدة تحب لبنان والدول العربية، دون غاية.

لو لم ادرس لكان علي ان اتلوى تحت حزامه الجلدي كلما هدته فريسة في مرايع بيروت.

الدرس خلاص!

يكفيني انني سأفرد في بيت يكون لي وفي اثاث يكون لي وفي سيارة تكون لي.

يكفيني انني سأحتفظ بكنوز هذا الجسد لي، دون تحابب وانتفاخ وبذر نسل وتربية اطفال، فانا اكره الاطفال!...

\*\*\*\*\*



الالتصاق لا معنى له، مجرد عادة... مجرد حركة.

لماذا تقوم الشفة بالتقبيل؟

لماذا لا اقبل امي فألصق شعري بشعرها او رجلي بأنفها او حذائي بفمها؟

ضحكت فشدتني الخادمة: انت شيطانة تضحكين علينا دون ان نشعر؟

اقتربت منها وهي تحرك الحليب والكاكاو على الغاز.

لي، انا، تعد السائل، فلن ارفض هذا النهار.

امي تغتتم فرصة انشراحي لتملأني بالمغذيات فتلحق بي الى الداخل: هل افتح لك علبة عصير الاناناس؟

حليب، كاكاو، عصير اناناس، كلها لي لتحسن صحتي وتطرد هذا الهزال من جسدي. يجب...

- نعم، دعيتها افتحها انا...

- تدغدغني لذة طرية في فتح المعلبات ومعالجتها وتتضخم هذه اللذة عندما يغرز سكين المفتاح في الابيض اللماع ويفور السائل متحرراً كيانه.

قوس والدي ذراعه حول رأسي:

- بابا متى تتقدمين للامتحان؟

فتدفق من بين ففتي فمه الغليظتين بخار حار ترعب على خدي وسرح حتى انفي وذقني.

هل فمي كفه؟

تحسسته فاذا به رقيق بارد. وفتحته لأجيب فلم يتدفق منه بخار. لماذا؟

وظلت الفلقتان الغليظتان النافرتان من وجه والدي تتحركان وتتحركان منطبقتين، منتفحتين متمزجتين حتى كدت ابصق في وجهه: "اسكت".

وكأنه شعر انني ارقب بسأم انطباق فمه فتتنحج زاماً شفتيه:

- رأيت المدير امس فسألني لماذا لا تذهبين الى المدرسة في اوقات الفراغ؟

لماذا اذهب الى المدرسة؟

تركت والدي الى الغرفة: لماذا لا اذهب الى المدرسة؟

زأرت من النافذة: لماذا لا اذهب الى المدرسة؟

انقطاعي عنها دلالة خوف. يجب ان اذهب!

بكلت ازرار الجاكيث الصوفية واضعة حداً لوثب النهدين تحت الكنزة القطنية الصفراء. وسترت فوضى شعري ووضعت الشال حول عنقي البارد الطويل وملأت فارغ يدي بكتاب سحبهته عن الطاولة واندفعت وبوابة البيت ورائي تصفق.

في الشارع تلذني رؤية الانوف الحمراء وتحاصرني علامات الاستفهام الحائمة فوق رأسي.

قالت لي جارة ثقيلة تحمل كيس خضار:

- هل كنت مريضة؟

فتملصت منها لأقابل غيرها بالنظرات الفضولية:

ماذا يريد هذا الرجل؟

ماذا يطلب هذا الصبي الارعن؟

لماذا يتبعني بائع العلكة؟

لماذا تنفرس في وجهي عاملة التلفون؟

التقيت صديقاً لوالدي فشدني من يدي لأقف معه واقاطعه بأسئلتني عن العائلة وسير الاعمال وابنته المتزوجة. ضحك عندما ودعني: "الله يحفظك لأهلك".

هذا الرجل لم يعرف بعد ان الله لن يحفظني لأهلي، انني لن احفظ لأهلي.

الساعة التاسعة بعد عشر دقائق اصل الى المدرسة، الى غرفة المدير.

تحسست الشال فذكرني بهربي من البيت، الخادمة والطفل والدرج الرخامي، رفعت نظري الى الشرفات ابحت فيها عن النراجيل والحبال الحمراء والكراسي المستلقية الى الورا، ما الفرق بيني اليوم وبينني امس؟ اليوم كبرت، وجدت كياني!

صوت بائع الموز عند المنعطف. هذا البائع ثقيل يعلق عينيه بسيفان المشتريات. شددت الكتاب واندفعت مسرعة تضايقني جلبية الشارع وزحام الناس لكن نظري يشدني الى الورا الى الورا لأتعلق بطفلة تمشي بلا أقماط وبطفل يركض بلا حذاء.

هل انا فقيرة؟

بعد البكالوريا اعرف نفسي فانا اليوم لا اعيش بل انا مجمدة. حين اشتغل تبدأ حياتي فألبس حذاء او أسير حافية. اما الآن...

الآن لا شيء. تقابلني البوابة الكبيرة بمصراعها المفتوح. تسللت منها فاصطدمت بوجه المراقب يتصفح مجلة ادبية. هل القي عليه التحية؟

سبقتي: أهلا، أهلا ندى، كيف الصحة؟ وعندما وقف كنت مصلوبة امامه. أرخيت اصابعي في يده الممدودة. كدت اغرق في ابتسامته العريضة:

- ماذا تفعلين هذه الايام.

- احتال عليها. ضحكت وانا الفظ الكلمة الاخيرة وتركته الى غرفة المدير.

تبعني بنظره وصوته: المدير يقوم بجولة في الصفوف، اجلسي في غرفة الانتظار.

الجلوس في غرفة الانتظار معناه البقاء مع هذا الثقيل والغرق في استئلته الفارغة.

اين اذهب؟

سبقتي المراقب الى الغرفة: "تفضلي" فسرت دون وعي ارمي الكتاب من يدي على طاولة السجائر واتكوم غاضبة على كرسي قرب الباب.

اما هو - برأسه المستطيل العصبي الحركة وشفته الغليظتين المتهيتتين لقبله، وعينيه الشاعتين كضوئين وسط ظلمة دكنا، فقد انحنى رخواً على الطاولة:

- ماذا؟ أتقرأين "مذكرات جريح"؟ انه كتاب رائع.

هل هو رائع؟ لم أقرأه بعد.

واستدرك الناظر - والضوء ان في وجهه مسلمان على مكان معين من وجهي على شفتي المكتظتين بالغضب:

- اتحبين بولس سلامه؟ طبعا تحبينه. فهو شاعر الالم، وانت تفتشين دائماً عن الالم.

- من قال هذا؟
- اساتذتك يقولون انك غريبة تفتشين دائماً عن اي شيء يعذبك.
- هذا كذب. وقمت عن الكرسي لاقطع عليه الكلام لكنه لم يسكت.
- لماذا تركت المدرسة؟

لماذا تركت المدرسة؟ صحيح: لماذا؟

هل اقول له: لاهرب منك؟

لا - هذا يعني انه، هو، شيء مهم في حياتي.

كان خلاصي بقدوم المدير فانتظرتة واقفة وغرقت يدي الضعيفة في يده الضخمة فالتصقت اصابعها بعضها ببعض والمدير ينتزع من شفتي الهزليتين اجوبة اكثر هزلاً عن اعمال والدي وصحتي وسر انقطاعي.

المدير طفل ساذج طيب القلب لكنه سريع الاشتعال.

استدار خلف المكتب وشدني الى كرسي قربه يربت بحنان على كتفي:

- ايه... أين وصلت في الدرس؟
- انهيت البرنامج كله، قلت مبتسمة.
- هذا رائع يا ندى، رفاقك لم يذاكروا بعد الا القليل.

ظلت عينان تمتدان في انفتاحهما حتى وصلتا الى حدود حاجبيه:

بالفعل اصارك انني المس فيك تقدماً كبيراً.

- لا عجب - الا تؤمن بالعصامية؟

فضحك:

- تعالي نزور الصف.

فسرت معه وانا اتساءل لماذا يكرمني المدير اليوم. هل انا من يفرض عليه هذا الموقف؟

الباب الذي انفتح حمل الي صوت الخنزير الوسخ من الداخل. كدت اتردد لكن المدير سبقني بالدخول.

لمن يقف التلامذة؟

وصرخ المعلم: "اهلاً ندى، كيف الصحة؟"

كلمة فارغة: "بخير". عيون زملائي تتفحصني.

اين كنت اجلس؟ مقعدي خال ورفيقتي تبتسم، تومئ لي بـ "تعالى" فيسد المعلم عينها بجثته الضخمة كالجمل جارفاً في طريقه الي الاشمئزاز والخوف.

اخاف ان اصعد بنظري الى أسنان هذا الوسخ المدودة. تعلقت عيناى باظافره الصفراء. وسألني:

- ماذا تفعلين؟

- ادرس وحدي.

وتموج صوته مازحاً:

- الست نادمة على ترك المدرسة؟

وقح، وقح هذا الخنزير. أنا أندم؟

- لا، بل نادمة على الايام التي قضيتها في المدرسة.

وغلفت كلماتي ببسمة حتى أخفي قرفي واستدرت أعذر وأخرج قبل المدير، المدير ينتمي بالخفاء الى حزب سياسي يجهر بانتمائه اليه امامي دون خوف لان والدي يشاركه الانتماء الى هذا الحزب.

عندما قرع الجرس انتقلنا الى غرفة المدير نستأنف الجدل.

هذا الرجل يحدثني الآن ككيان.

ما الفرق بيني اليوم وبين بالأمس عندما هجم عليه وقذفني برخاوة الى الملعب؟

كنت عبدة، أما اليوم فانا مثله لي كيان وارادة، وآراء تُسمع.

ظهر فجأة في الباب استاذ العلوم، اسرع ورمى يده رميةً على يدي وشد. يشدني اليه خيط متين...

طمأنيني عن صحتك.

كلمة "طمأنيني" تختلف كثيراً عن كلمة "كيف".

الخنزير الوسخ قال لي: "كيف صحتك". المدير كيف الصحة المراقب السافل بصق بوجهي "كيف صارت صحتك؟"

"كيف" سؤال مطمئن، مجرد سؤال مجرد رتابة اعتدنا ان نقولها في بداية كل حديث. اما كلمة "طمأنيني" فلها جو آخر، تأثير قلبي.

هل كان يفكر فيّ طوال غيابي؟

كدت، وانا اهم بالجواب، ان أغرق في عينيه، كدت اذوب، كدت اصرخ، كدت انهار، فأثرت النجاة بسؤال عارض:

- كيف العلوم في الصف؟
- بغيابك جمد الصف كله، قال الفم الرقيق.
- اتعني ان الازعاج قد خف؟
- لا تتظاهري انك لم تفهمي. الصف لا يطاق، يظهر انك كنت تملئينه حيوية... بتمردك!

سكت، وامسك المدير عن الدندنة.

تطلعت: امرأة بين رجلي! أنا، بين المدير واستاذ العلوم!

ما الفرق بين وبين استاذ العلوم؟

المدير يختلف عنا نحن الاثنين، المدير ذو صبغة غريبة حين يغضب. اما نحن الاثنين، فمن منا اقوى؟

أنا! انا... انني ادرس، اعلم نفسي، انني بين رجلين، اذاً انا الأقوى!

وانسحب المدير الى الملعب.

الآن وحدي مع رجل، مع رجل واحد.

ماذا يحدث لو اغلق الباب واسدل الستائر وتقارب الجسدان؟ امرأة مع رجل في غرفة مظلمة!

هل انا مع رجل؟

لا، نحن امرأتان في الغرفة او رجلان، المهم اننا بقوة واحدة بنسبة كينونة واحدة.

بعد البكالوريا اصبح كالمدير لي سطوة على جماعة كبيرة. وبعد العمل والراتب الشهري افوق المدير وابي...

صفر تلميذ امام الباب وركل رفيقه فتعلق نظري بطوقه الاحمر. لماذا شدني هذا اللون؟

وقفت في الباب. تبعته عيناى.

عيني لا تطيق الانفكاك عن الاحمر الواثب يلامس الوجه فالطوق يشدني من عنقي، يلتصق بأنفي يسد أذني عن صوت المعلم وقرقعة الاقدام على البلاط واندفاع المدير ضاحكاً من الخارج يسأل:

- ماذا أعجبك يا ندى؟

وقوفي في الباب يقول لأستاذ العلوم: أخرج، أخرج، فيخرج لأنه حساس، وجبان!

كلا. أخطأت باعقادي اني واستاذ العلوم بنسبة قوة واحدة. فانا اقوى منه وشخصيتي اقوى، آرائي اقوى، ارادتي اقوى. انا كالمدير، بل افوقه بتحري من عبودية الحزب. افوقه بجرأتى حين اقنعه بسخافة الانقياد.

ومددت يدي استعجل مصافحة الرجل الذي عاد الى وجهه غضب الذئب الجائع واسرعت اهرب من الجو الخانق.

الشمس حارة لكنها تهبني انشراحاً وانا اسير.

انتصار آخر لي، فقد قاومت المدير كما قاومت ابي من قبل واقنعته بأفضلية الاستقلال.

أسير بخطى سريعة نحو الكيان الاكبر.

ماذا ينقصني؟

وقفت وتفحصت حذائي جوربي ثوبي كنزتي شالي ونظارتي، واكملت السير. المدير كأبي ضعيف يتستر بالكف العريضة والشارب الاسود والنظرة الحادة فقد أخطأت عندما تشبهت به.

من أشبه؟

استاذ الادب الفرنسي مزيلة وسله نفايات. استاذ العلوم ضعيف وجبان معلم الرياضيات مجرد طبل فارغ يرفع رأسه لأنه يخاف ان ينزله الى ارض المناقشة. الكلب النظيف يقول ولا يفعل. استاذ التاريخ مقامر نذل ومستهتر. اي المعلمين كيان؟ اي رجل من محيطي هو كيان؟

هذه امرأة تحمل بيدها كيس تريكو.

ماذا ينقصني؟

وقفت. تأملت حذائي، جواربي، ثوبي، كنزتي، شالي، نظارتي، لا ينقصني شيء.  
واكملت السير.

اجتاحت الشارع سيارة مجنونة وصفر لي سائقها. هل ثوبي مرفوع. لماذا يصفر؟  
اعجبتني امرأة تحمل بيدها كيس الخضار وتتجه نحو مدخل منزل. وقفت أتأمل ما تحمل، كيف تمشي، كيف  
تطوي الدرجات.

التفتت صوبي: "هل تريدين شيئاً يا أختي؟".

المرأة تحمل كيس الخضار وأنا ماذا ينقصني؟ تأملت حذائي، جوري... لا شيء.  
وأكملت السير.

لفتت نظري واجهة محل نوفوتيه، اقتربت، مسحت أنفي بالزجاج: كريم فيت، وأحمر شفاه، وقلم حواجب،  
وصابون كاماي، وزنار جلدي اسود وشال اخضر وربطة عنق رجالية...

إذا استعملت كل هذه الحوائج اعود اقنوماً.

"تفضلي" قالت الفتاة الواقفة وراء الواجهة.

ضحكت: لا... هل تبيعين كتباً هنا؟

فضحكت معي قائلة:

- لا ليست عليك دلائل تلميزة.

الفتاة هذه صبورة، خفيفة الروح.

تركته فلاح من بعيد بائع علكة.

هل املك خمسة قروش؟ تفحصت جيبي فقالت لا.

سيتبعني هذا الثقيل، سيخجلني امام الناس.

هربت منه الى محل محفوظات. سألني التاجر: ماذا تريد الانسة؟ ماذا اريد؟ قلت له: اصبر. وادرت ظهري  
الى الناحية الثانية، فاسرع الخادم نحوي نعم... نعم... أي ماذا اريد.

تطلعت الى الخارج. لم يمر بائع العلكة بعد. ماذا أفعل، ماذا أريد؟

تملمت واكملت الزحف رويداً من الداخل نحو الباب اجرجر نظري على عواميد العلب الملونة الى ان لفظتني العتبة خارجاً.

يتجه نحوي بائع علكة آخر. سأطرده دون خجل.

وقفت انتظر وصوله فلم يقترب مني انما لحق بشاب غيري. تنتفت غضباً. هل عرف هذا القزم انني لا املك خمسة قروش؟

تصفح وجهي شاب مراهق وهو يمر ثم شد رفيقه: انظر، تشبه ليندا. من هي ليندا؟

اي فتاة تشاركني غرابتي؟ جرفني عتال بلوح خشب فجعلت اركض لماذا اتلهي هكذا؟ يجب ان اصل باكراً الى البيت.

الفتاة امامي تخنق فراغ يدها بمجلة فرنسية اما أنا فماذا ينقصني؟

ايتها القدمان توقفا عن الركض. ماذا ينقصني؟

تأملت حدائي جوربي ثوبي كنزتي شالي نظاراتي، تأملت يدي، ما بها يدي؟ ما بالها فارغة؟ اين الكتاب؟ تطلعت الى الشارع المنزوي. اين الكتاب؟

المراقب في المدرسة كان يتصفحه وانا في غرفة الانتظار، هل رده لي؟

تسمرت قرب عمود كهرباء، الكتاب يجب ان يعود الي. لو ضاع شالي لما اهتممت. الكتاب شيء مهم ويجب الا يضيع... اذكر جيداً انني تركته في يد الناظر الرخو عندما صافحت المدير... ماذا هل بقي معه... بلى، لا.

أمسكتني نورية من يدي: الله يخليك، الله يوفقك، ريع ليرة للطفل. حدجتها بنظرة مجنونة.

اين الكتاب؟

شدتني من جديد: وحياتك، الطفل، جائع، حرام، انت حلوة وتحبين الصغار...

غلت النار في صدري. من قال لها انني احب الصغار؟

صرخت بها: اذهبي اذهبي. ثم امسكتها من كتفها وقذفتها ترتطم بظهور المارة وصوتي المخنوق يصرح ويشتم  
فانا أكره... أكره... أكره الاطفال!

\*\*\*\*\*



- ندى، لولا شدة غضبها لضمنت النجاح.

واحتج استاذ العلوم:

- لا، الغضب لا يؤثر على الذكاء والقوة. اراهن ان ندى ستنجح بتفوق وتثائب معلم التاريخ والجغرافيا:

- المعروف ان لندى أملاً لا بأس به بالنجاح...

ما المهم يتلاعبون بتقدير مصيري بخفة، برخاوة، بإهمال، وانا صامتة.

غضبت ونزح الغضب من اعصابي الى فمي صراخاً:

- لم أشهد القوة من أي معلم ومع هذا سأنجح، سأنجح، سيتذلل النجاح لي ويركع صاغراً ويقبل هذا

الحذاء.

ونبتت الحدة من نظرتي البيضاء وانا اشير الى حذائي فضحكت الحلقة حولي وهز الكلب النظيف رأسه  
قائلاً:

- ليس اجمل من الثقة بالنفس، اهنتك.

فجعر الخنزير النتن:

- نقر لك بالاجتهاد ولكن ليس باستطاعتك ان تتكري فضل المدرسة. من المستحيل ان تضميني لنفسك

النجاح بشهرين فقط من الدرس.

تسرح على وجهه بسمة صفراء... وحركني صوت المدير فانفلتت من الحلقة تاركة ورائي موجة حامية من

التعليقات الهزيلة دون ان اهتم.

انني فرحة.

وفي وجه المدير ضاع الفطور الجاف فضحك لي ملء شفثيه شاداً على يدي يضافحها، ويطرح على بساطها

حافضة حمراء فيها بطاقة الامتحان، بطاقتي.

تأملت الرقم، لملمت اجزاءه اكدسها خمسة فوق سبعة فوق واحد فوق... خيل الي انني اراه على لوحة النجاح:

"ندى خوري ناجحة".

"ندى خوري ناجحة".

"تاجحة" ولادة بالنسبة الي، معناها بيروت وحريتها، البيت المنفرد، الراتب الشهري، معناها السيمكا السوداء!

وامسكني المدير من يدي حنوناً:

- اتذهبين معناً غداً الى الامتحان ام لا؟

- سأذهب وحدي.

وقبل ان اخرج مدّت لي يده الضخمة كتاب "مذكرات جريح".

انقضضتُ على الكتاب بلهفة، اعصره، ورأيت في داخله... آه! لقد عاد الغضب يحنطني.

اسم "ندى خوري" يزنره سطر احمر وتذيله حروف وجلة تصلط وهي تتجمع لتؤلف كلمة فاجرة عارية:  
"اذكريني"...

تشنجت اطراف الكتاب بين اظافري. وحسبت الاحمر حول اسمي يتحول الى دم، دم يربطني على فراش  
بصاحب الكلمة الوسخة، بالمراقب الماجن. ومن دون ان ادري زحفت قدماي الى الملعب وعينا ي عبر رؤوس  
التلاميذ بعيداً حتى توقفت عند رأس مستطيل ويدٍ تقذف بقضيب عالياً ثم تلولبه وتلتقطه. وقابلتني عين  
الصرار فانصببت ورميت اوراق البطاقة من يدي وشددت اطراف الكتاب الى ان تفككت وتناثرت وتطايرت بين  
الاصابع المجنونة. وعندما تحولت الصفحات الى اشياء منثورة في يدي قذفت بها الوجه المستطيل والشفقتين  
الممطوطتين ببسمة رخوة :

- اسكت. كلب، وقح. لا تستحق الثقة.

واندفعت خارج الملعب.

أي بطولة قمت بها الآن؟

خلقت حول الناظر المسكين موجة من السخرية والهزاء، من الضحك الفاقع الالهوج وهو الصرار الماجن  
يرتجف تائهاً بين اللامبالاة والغضب.

والآن في الشارع امامي صرّار ماجن آخر، اراه يستدير ثم يقف ويتأملني ويقلب شفته السفلى ويسير ورائي...

ما الذي يثير في جسدي الهزيل؟؟

هل ثوبي مرفوع؟

ماذا يثير في ثوبي الرمادي وشالي الاصفر وحذائي الرمادي وشعري المبعثر على كتفي؟

لماذا يتبعني هذا الوسخ؟

تطلعت: لا يزال ورائي. فسرت. ركضت... وتطلعت ورائي: لا يزال ورائي...

وقفت احمق فيه، اصب عليه سمي. فقلب شفته السفلى هزأً واجتازني بدفش باب صالون حلاقة.

لماذا اقلقني تعقبه لي؟ لو اكمل، لو ظل يتبعني حتى البيت فماذا كان يحدث؟ هل انا ضعيفة لانهار بكلمة غزل، بصفير، بعبارة اعجاب كاذبة؟

ماذا يسمى الشاب الذي يتبع فتاة في الشارع؟

كلب... تماماً كلب، ينبح ويتبعك ويتبعك ويتبعك... واذا لوحث له بالعصا يهرب.

ترى هل احيا انا؟ اذا نجحت في البكلوريا هل احيا؟ اذا قبضت كل شهر الف ليرة هل احيا؟ اذا انحنى لي سائق ولمع لي سيارتي هل احيا؟

اشك - اليوم فقط اشك - اشك بعيشي، بحياتي، بمستقبلي، بنجاحي اشك بوجود الله، بقدرة الانسان، اشك بخطوات الشاب الذي يتبعني.

هل انا حية؟

قالت الخادمة الراكضة: لا. وقال الصانع الغاضب: لا. قالت المرأة البدينة: لا. وقال التاجر الذي يتشاجر مع شاب: لا.

فتاة واحدة مرت وهي تضحك مع رفيقها قالت: نعم. عيناها قالتا: بلى بلى انني اعيش، احيا!

ضحكة مع شاب تساوي نعم؟؟

يا للهراء!

نقرت امي على عنقي قائلة:

- اخذت قماش ثوبك الجديد للخياطة فاذهبي وانتقي الموديل بنفسك.

مشروع جديد رائع!!!

الآن انا حرة! اذهب وحدي دون اوامر امي، دون نقد الخادمة، دون اعتراض ابي... سأدخل على الخياطة ككيان، اقول لها: ضعي هذا، انتبهي لذلك. وحدي سأقول لها: ضيقي الثوب، قصريه، وسعي القبة، قصري الكمين...

ان قدمي حرتان في تكسير خيوط الشمس دون ان تخافا الحرارة المحرقة ونظرات المارة وسخرية عاملة التلفون المتبرجة وصوت بائع الكعك الرابض عند زاوية اول الشارع.

وبغثة رأيت فتاة تتأبط ذراع رجل ونقر حذاؤها باباً زجاجياً دخلت فيه مع حارسها. خطرت لي فكرة ملعونة:

هل اندس وراءهما في الباب؟

هذه الفتاة انثى صارخة يعرّف عنها كعب حذائها المرتفع وشعرها المشقر المتهدل والكحل المذيل عينها والظل الرمادي المشحب جفنيها واحمر شفتيها الصارخ.

ماذا تفعل انثى مثيرة مع شاب في مقهى عام؟

وضعت انفي على الزجاج فاشار لي شاب اسود من الداخل ضاحكاً: "تفضلي".

وسرعان ما اقتلعتني الخجل ولكن خيال الفتاة المثيرة يشدني ويعصرني شداً لأعود واعرف ماذا تفعل فتاة مثيرة مع شاب في مقهى عام.

دفتت الباب بتحد وانقذت نحو الزاوية البعيدة.

الفتاة قبالتني بضعفها الفادح واطاؤها الطويلة وكعبها العالي المثير وعموديهما الهفاهفين المنطويين تحت الطاولة واسنانها الرائعة في تناسقها وهي تضحك...

لكنها، مضغتها جيداً فقفزت حمرة خفيفة الى وجهها وهي تلتصق رأسها برأس رفيقها هامسة: لا... لا تصدق... وضحكت، فمد يده وامسك يدها المنقبضة على الطاولة يتأملها يحنو وبنهم، بتمتمة حمراء كأنه يستجدي قبلة، كأنه يهم ببلع اصابعها.

عندما وضع الخادم امامهما صحنى حلوى امتدت اليد الغليظة ترفع الملعقة بقطعة مستديرة وتدسها بين الشفتين اللاهبتين فترمي هي رأسها على يده غنوجة تقهقه، بتفجر بتقطع.

ماذا لو استدار الشاب نحوي وانهاه عليّ بيديه وهو يصرخ: اذهبي من هنا ايتها اللعينة؟! ماذا لو نبهت الفتاة حارسها قائلة له: اطرد هذه الكلبة التي تطاردنا؟!

أحقاً انا كلبة؟

وعادت الفتاة تنقل نظرها بين الصحن ورأس الشاب والباب الزجاجي المغلق.

نظرتها الى الباب تستر خوفاً وانحناؤها على الصحن يفضح جوعاً وغرقها في عيني الشاب ينم عن شهوة دهريّة.

الخوف مع الجوع مع الشهوة يكون امرأة اقنوماً كالتى تكلم عنها الخنزير الوسخ، يكون امرأة تعيش لتكون صنم جمال وآلة نسل.

هل انا خائفة؟ هل انا جشعة؟ هل في عيني شهوة؟ لا، فانا كيان.

واصلت لملمة مشاهد الضعف امامي بين انحناء وتذلل وتربيت وانطواء ومصمصّة شفاه مسعورة.

واكملت مطاردي للشباب وقطته وهما ينسحبان اتمشق بالقامتين الفاجرتين واتلذذ بالتبحر في الصغيرة منهما وهي ترفع رأسها بانكسار، تتكتك بكعبها العالي وتترف بثوبها المرفوع فوق الدنتيل الكثيف.

عند الزاوية انتبهت: ما الذي يربطني بهذه القطة الضعيفة؟

تركتهما تجتاز المنعطف ووقفت أتأمل الكتب الرخيصة على الرصيف.

هوذا طفل صغير يمر بي ويحف بي.

ماذا افعل هنا؟

الساعة الاولى والنصف... لن اعود الى البيت قبل الرابعة. اذا ساعتان ونصف سأمضيها اتشرد دون هدف ولا طعم. دون غاية.

ولم اجد ما افعل، فوقفت امام واجهة مصورة.

الرسوم فاجرة: بقرة تعرّت امام رجل ليأخذ لها رسماً، قطة تفتش عن منزل يحميها، عن رجل يشتهيها بظهرها العاري وصدرها المنتفخ البض.

مشيت وعند الدرج صادفت شاباً اشقر يحملق في صورة جسد عار على غلاف مجلة. بصقت قرفي واسرعت اعد الدرجات. يلذني ان اعد درجات سلم اقطعه والآن يلذني اكثر ان اقابل الخياطة بابتسامة صفراء وبرغبة قاطعة لفرض ارادتي وان امطرها بالملاحظات "انتبهي، قصري الثوب وضيفي الكورساج، الكمّان قصيران انتبهي لوضع العقدة عند الخصر. احسني توسيع فتحة الياقة".

احتسيت شيئاً من القهوة واسرعت اعد الدرجات.

أين الشاب والمجلة والجسد العاري؟

كان يجب ان تكون لي معه بطولة...

والآن، أين أمضي؟

أفي هذه المكتبة لي هدف؟

سألت الرجل الذي يكتب، عن ثمن كتاب في الواجهة وعدت التحق بأفواج المارة واتعلق بكل سيارة سيمكا تمر، بكل سيدة تتكتك بكعبها العالي.

ولم أجد افضل من الصبي الواقف وراء كرسي اليانصيب لاحدى شركات التبغ، من ان اصرف منه نصف ليرة ووضعت على الرقم 4 خمسة قروش. لم تريح. وعلى الرقم 6 خمسة اخرى. لم تريح. وضعت على الرقم 5 والرقم 7 عشرة قروش لم تريح... فثرت واجتمع حولي ثلاثة شبان يتزاحمون.

كيف انسحب مهزومة؟

ضربت بالخمسة قروش الرابضة في يدي اليمنى، اللوحة، فانحطت على الرقم 20 وقبل ان انتهي من تقرير انسحابي توقفت الابرة الحمراء عند زاوية المعدن الابيض.

سحبت العلبة الحمراء من البائع وانفلت فرحة.

هذه مغامرة!!

أي فتاة غيري تقف في الشارع وسط حلقة من الشبان تنتظر حظها مع الابرة الحمراء؟

هل انا ضعيفة؟ لا، انا كيان...

من هذه الزاوية كنت امر كل يوم الى المدرسة... ستفتقدي هذه الزاوية بعد اليوم.

بماذا اودعها؟

وقفت أتأمل الاقدام المسرعة امامي والاكف الملوحة والافواه المتحركة بعجلة. رحبت بالصبي الذي اعتاد ان يطلب مني حسنة في هذا الشارع، رميت في يده قطع المعادن المخشخشة وعلبة السكاير. ابتسمت لفتاة كانت زميلتي قبل سنة. رافقت بنظري شاباً انيقاً مهذباً...

تتجه نحوي امرأة ضخمة... حبلى، ترتدي ثوباً كحلياً دون حزام... تأملت بطنها المنتفخ. كدت أتقيأ...

بطني. هل هو منتفخ؟... هربت، هربت، واسرعت الى البيت.

وعلى الطريق وقفت ثانية. هل بطني منتفخ؟ هل انا حبلى؟

ازداد القرف ضغطاً على معدتي واشتدت رغبتني في التقيؤ.

التصقت بالحائط. خائفة. اموت خوفاً...

شدت الحزام على خصري، عصرت خصري عصباً، فتوقفت امرأة قربي: "حرام يا ابنتي، ارخي الحزام".

هل هذه حبلى؟

هل انا حبلى؟

أكملت اشد الحزام واخنق صورة الانتفاخ في بطني فمن المستحيل ان ارثدي فستاناً واسعاً، من المستحيل ان احبل تسعة اشهر، من المستحيل ان ألد طفلاً!...

\*\*\*\*\*



اشك في قدرتي على النجاح واشك في امكان رسوبي، واشك في قدرتي على المضي وحدي في طريق مستقبلي؛ ومع هذا اتحرك واكسر النور.

السماعة الملعونة تدك انتظاري بكلمات قليلة: لا، بعد ساعة تعلن النتيجة.

بعد ساعة، بعد ستين دقيقة، بعد آلاف من الثواني اعرف مصيري فلأكمل طوافي.

على مقاعد مقهى "الروضة" لم أر أثراً لامرأة...

وحدي...

قربي ثلاث طاولات فارغة وأمامي شابان يقضمان الفستق وخلفي رجل يعذب كوب عصير.

الرؤوس الباقية تلتهم أخبار الصحف. ومناقشات وأحاديث وفناجين قهوة وصراخ ونراجيل وطرابيش وعيون زائغة.

طلبت من الخادم المصلوب في وجهي عصير الحامض، وسحبت من بائع الصحف المتجول ثلاث جرائد.

لماذا اشتريت ثلاث صحف؟ لماذا تركت بقية الليرة للبائع؟ لماذا انشر جسدي واوزعه على العيون؟ لماذا اشرب الحامض بجشع؟

قرأت عناوين الصحف: الحكومة تهدد بالاستقالة، ثلاثة جرحى في حادث اصطدام. أم تقتل طفلها في الليل، عبد الناصر يخطب في دمشق، مشاريع الفضاء الاميركية في خدمة السلام...

الصحف كلها تغلي بالثورة. ضد من؟ ضد انفسنا. متى يرتاح العالم؟ متى أرتاح انا. متى يرتاح صاحب هذا المقهى. متى أرتاح أنا.

بعد ساعة تصدر النتيجة فهل أرتاح.

اشك، وارتاب بأقوال هذه الصحيفة. اشك بصدق عزم الوزراء على التخلي عن الكراسي. اشك بصحة وضع اميركا لأموالها تحت تصرف السلام اشك بنفسي.

لماذا لم ابادل امي وأعيد الحذاء الى وجهها حيث قذفتني به في الصباح. لماذا لم أنشب أظافري في وجه الخادمة الهازئ. لماذا لم اقتلع عيني والدي وامعسهما بحجر.

بعد نجاحي سأعود، اهجم على امي، أركعها كالكلبة عند قدمي، اعلمها ان تحترمني، اعلمها ان تخضع لارادتي، اعلمها انني حرة في كل ما افعل.

مجرد رغبة عرجاء... مجرد قرار هوائي.

إذا نجحت هل انفذ... أشك...

قامت ضجة في طرف المقهى وارتفعت الرؤوس. أربعة شبان ركضوا يتبعهم ثلاثة ثم واحد فأخر... نطت اليّ كلمة بكوريا وحول التلفون في المقهى التفت زمرة بخوف.

لماذا أرتجف. لماذا أتحرك. لماذا اسير.

تصفحني طربوش ضخم من اسفل حدائي حتى اعلى شعرة في رأسي، افتعل شاب الانحاء ودفع رفيقه صوبي. صفر شاب آخر وهو يأمر رفاقه ساخراً بتوسيع الطريق.

لماذا لا اراجع.

ابعدت بقوة الاكف المتحسسة بي، انتشلت السماعه من يد شاب ضخم اسأل عن النتيجة.

"النتيجة صدرت".

رمى السماعه. دست على أحذية المتكالبين حولي. ضربت ايدي شابين متشابكة لتسد في وجهي الطريق. لم استدر نحو مصدر الصفير الحاد ولا الى القهقهة الطويلة.

ورفعت عن الطاولة محفظتي والصحف الثلاثة واندفعت راكضة الى دائرة الامتحانات.

اقدام كثيرة لطممتي لأراجع. لم أراجع، لم اهتم...

بسرعة وجدنتي مملوءة امام اللائحة الكبيرة.

تفرست، تبهرت...

لماذا لا اقوى على النظر.

ضباب عابق حار يكتنف عيني ويدب الخفقان والاحتكاك في قلبي ورجلي.

هل سيغمي عليّ؟

اقتلعت النظارتين عن عيني ودسست انفي بالجدار.

اريد اسمي. اريد ان أرى. وأطبقت يدي على العمود الاول من الاسماء ندى خوري؟ ما بالها يدي تقع خائبة؟

هل أهرب؟ هل أستسلم؟

عادت يدي تستأنف زحفها على العمود الثاني من الأسماء. ايضاً ارتمت خائبة ودوى في أذني صوت فرح، صوت شاب ورائي: "أنا ناجح".

وأنا؟

خاب أمني في عمودين من الأسماء فهل يمكن ان يعوض في العمود الباقي. لماذا أتعذب في قراءة العمود الثالث.

فككت الصفوف ورائي وعدت أسير... أتأرجح الى أي مكان غير الغرفة المشؤومة التي تؤويني كل ليلة...

أين أمضي؟

ارتيمت في جوف المقعد في مقهى "الاندلس" صاحب هذا المقهى يعرفني فلماذا أتيت الى هنا.

يجب أن أمضي، يجب أن أشعر أنني غريبة، يجب الا يعرفني احد في تشردي.

مستحيل أن أقوى على المشي، فأنا راسبة. عضضت اصبعي. راسبة.

مزقت المنديل بأسناني. راسبة. نتفت الصحف الملوكة في يدي. راسبة. خبطت الأرض بحذائي، هبت النار الى صدري الى أظفري وعيني... فأنا راسبة!

ودون أن ادري ضربت بكل عزم يدي على الزجاج الاحمر أمامي فتكسرت منفضة السكاير وعلت الضجة. وأمام الشظايا المبعثرة والدم النابع من يدي والعيون النافرة من الوجود انحلت، وسيطرت غمامة سوداء على عيني.

\*\*\*\*\*



انا ضعيفة... صنم كان يحلم بالتححرر من ام سخيقة واب متحجر جاموس...

كان مجرد حلم. اما الواقع فهو انني راسبة وامي تخنق عنقي بيدها وتصرخ:

- ندى، حبييتي، سامحيني. الحق علي. لكن لماذا لم تسمعي الكلمة، لماذا؟.

والطبيب يربت على رأسي متمماً: "الحلوات هي غالباً عنيدات وعصبيات المزاج... يلزمها مقويات فهي ضعيفة".

ضعيفة!

فلأسخر من امي التي حسبت انها السبب في اغمائي، والطبيب الذي يكذب ويقول انني حلوة ويتحدث بسخافة عن المقويات، ونفسي المضطربة ورسوبي في الكلوريا.

لكن الضحك يحاصرني كالزرد وانا ازحف بنظري من خلال نافذة غرفتي نحو السماء الصافية ورؤوس  
البنائيات والشبابيك المفتوحة والحركة البطيئة في الشارع.

من من زملائي ناجح...

لم أقرأ اي اسم فهل جميعنا راسبون.

إذا انا واحدة من مجموع.

... لكن اختلفت عنهم في النتيجة والمسببات...

ماذا اكثر من اليأس عاقبة مرة؟

وبأكثر ما يكون اليأس مرارة تهالكت نحو سماعة التلفون لأطرد الفراغ وأرد على الرنين:

- الو - من.

فخشخش الصوت متطفلاً:

- مدير المدرسة. ندى اهنتك. ندى انت وعشرة من زملائك! ندى ما بك... تكلمي. ندى ...

وانفكت اصابعي ببطء وتكؤم جسدي الرخو على الاريقة.

ناجحة!!

والدي يصفعني: ناجحة! يهزني بكتفي: ناجحة!... يخنق سماعة التلفون: ناجحة!... أمي ترعد: ناجحة...  
وتتمسح بوجهي شفاه يابسة... ناجحة!...

هل حقاً نجحت.

مستحيل... فكرة المستحيل تضايقتني رغم اني أحسنت معالجة المسابقات.

لكن الفكرة الملعونة انعدمت بين سطور جريدة والدي وانا أعثر على اسمي بلذة بين اسماء الفائزين تماماً كما  
أتلذذ بسحب حبات الصنوبر من اقراص الصفيحة.

والآن أين الكلب النظيف لأقول له ان "تلك" "كهذا" "وذاك" انني الآن قوة فردية تخدم المجموع، وانني كيان  
كامل سيصبح له بيت وسيارة وراتب وكلمة مسموعة تماماً مثله، مثل "هذا" وذاك".

كلا، بل انني أفوقه. اني ذهبت حتى وانا أجمد كالبلهاء أمام معلمة الرياضيات في الامتحان الشفهي حتى وانا  
اتسلم النتيجة النهائية حتى وانا اتلذذ بمشاهدة زميل شاب يبكي بمرارة الطفل لأنه رسب... أينما كان أفوقه  
احتكاراً للاعجاب بي.

والآن ما هو مخططي؟

وخاطبني والدي:

- ندى: ألم ننته من الشرود.

الشك لا يزال. الشك بقدرتي على العيش وحدي، بموافقة والدي، بقدرتي على المضي دون مساعدة، بصمودي  
أمام تأزم الدم في شفتي والدي، الزرقاوين حين يغضب.

يلحقتني الشك وأنا أسدّ فراغ الصالون بقامتي وأحبك أفكاري حول هذي الرأس المدورة رأس والدي وهو يصرخ  
بحدة:

- بماذا تفكرين؟ انت تقتلين نفسك بشرودك الفارغ. كوني واقعية - خذي - تسلي بهذه الجريدة.

أنا أكبر من هذه الورقات الفارغة وأرفع من التلهي بترهات حزبية رخيصة التجأت الى غرفتي تاركة ورائي  
عينين ضائعتين وبدأ ترتجف فيها أوراق الجريدة الخائبة في اجتذابي وشففتين ترقصان وتبحثان.

هل يكمن الحل في رأس والدي الممدودة من الباب؟

- اتبعيني الى الغرفة.

اتبعيني... أمر مجبرة على تنفيذه وعلى استقبال أوامر أخرى حازمة في الغرفة.

- خذي. امسحي المكتب بهذه الخرقه واجلسي قربي.

انفذ بضعف كل أمر فأمسح المكتب وأتلهى وأقف وأتمنى لو يتكسد الغبار أمامي حتى يأكل كل دقائق قبل ان يحين وقت جلوسي. غير ان الشرر ينصب من عيني والدي على الخرقه بين أصابعي كأنه يقول: أسرع. ورميت جسدي في وجهه يائسة. أصابعه على الزجاج تلتف حول بعضها البعض وقدماه تشدان على الكرسي الصغير ثم يرفع نظره الى رأسي، الى شعري، الى القسم الصغير البائن من جسدي.

- ندى، تعرفين يا ابنتي انك أثري الوحيد في الحياة. وتشعرين بالوقاية والعطف اللذين نحيطك بهما، ومع هذا تتأففين وتتذمرين وأراك دائمة الشرود كأن عبوسك واجب محتم.

اسمعي، كان في ودي ان أجعل منك محامية تترفع في قضاياي الكثيرة، كان بودي او أجعل لنفسي مكانة أرفع وأعظم بواسطتك وفضلك، وكنت أحلم ان ندى ستسد الفراغ الكبير الذي أحدثه القدر بحرمانني البنين.

مع هذا دفعت كل آمالي لأضمن لك الراحة حتى البكلوريا. كنت قد قررت بالنهاية الا أجبرك على إكمالها لولا ملاحظتي لاجتهادك؛ ورغم هذا لا أزال أجلك مرتبكة حزينة لا تحترمي أحداً ولا تؤمنين بشيء.

لكنني مستعد أن أحتملك شرط ان تخفي من حدثك وعصبيتك.

البكلوريا ضمننتها. أترك لك حرية اختيار مصير ما. هناك شاب محترم طلب مني يدك منذ شهر ولم أفكر بأمره الا اليوم بعدما علمت ان فكرك قد ارتاح لكنني أخشى ان يكون شرودك نتيجة تعلقك برجل آخر.

"على كل حال أريد معرفة أحد الاحتمالين فاما ان ترضي بالشباب الاول وهو ابن أحد التجار هنا في طرابلس أو أن تفصحي عن الآخر وأنا مستعد للموافقة اذا كان غنياً..."

التأمت شقوق الصمت في الغرفة وعينا والدي تنتظران اهدائي الى حل وتستعجلانني.

غير اني لم أعد أقوى على كتمان الثورة.

يجب أن أتقيأ، أن أبصق الحصاة. في رغبة ملحة لكمّ هذا الفم النتن وتحطيم الرأس المدورة بحذائي.

يجب ان أتكلم. وضرخت بشدة: "لا أريد ان أتزوج". واندفعت خارج الغرفة.

وقوفي عند البوابة الكبيرة هل يحل المشكلة؟

مصّ المنديل دموعي وتهدت في الشارع الخلفي لبيبتنا دون هدف أقطع الممرات والأرصفة.

أين أمضي؟

بناء ضخم تعلوه قبة وصليب وجرس. وميّزت باباً مفتوحاً تخرج منه امرأة عجوز... اندفعت نحو الباب دون وعي.

في الداخل شمعتان مضاءتان أمام صورة المصلوب وفتاة جاثية أمام الصورة الضخمة، والسكوت يخيم.

تحركت بخشوع بارد حتى الصورة والشمعتين. جثوت، وضعت رأسي بين يدي وبدأت اعصر عيني.

لماذا التذّب البكاء هنا؟ لماذا دخلت؟ لماذا انتقيت صورة المصلوب أسجد عندها؟ لماذا ارتحت لاحتضار الشموع؟ لا أدري. أدري كل ما أحس هو انني يجب أن أبكي، يجب ان أهز الصورة وأتمزق، ان أتحرك، ان أقتل الصمت فالصمت جنون.

نبهتني دقات الجرس المتقطعة الى أن الوقت ظهر فقمت ومضيت. وفجأة طلعت لي قامة كاهن قصير يحرق في بذهول.

هل أصفعه؟ اجتاحتي رغبة هائلة في ذلك.

قالت امي وهي تتأمل العرق المنصبّ من جبتي: "لم تتأخري اليوم. لماذا؟"

انها تسخر مني.

وضعت الفوطة على صدري وبدأت بالتقاط الطعام ورّجه في مقبرته الجائعة.

غير ان صوت والدي المقيت اوقفني: - ندى، هل عندك رغبة للخياطة او التطريز؟

اسكته امي:

- باستطاعتها ان تتعلم الرسم او الموسيقى.

عاد والدي:

- الافضل ان تدرس لسنة تدبيراً منزلياً ثم تتحاز الى أحد الفنون...

فانتفضت صارخة:

- لا حاجة لهذا العذاب فأنا أريد ان أشتغل لأعيش بثمن عرقي...

اتسعت عينا والدي حتى كادتا تنفلقان وشهقت أُمي كشهقة إغماء، وبسرعة وجدتني تائهة بين الجور المحدقة لابتلاعي.

هل تمتصني عينا والدي؟

سيبتلعي فم امي؟

حاولت ان اهتدي، ان أضيع في لملمة بقايا الارز من صحنى فأنحطت يد والدي الضخمة بتقلها المرعب على يدي المرتقصة وهزتها بضرارة.

- مرت بفكري جميع الاحتمالات قبل ان أعرف ان هذا هو قصدك...

اعلمي انني لن أسمح لك بتلويث سمعتي وشرفي. لن أسمح مهما حاولت... ندى، انت بنت... افهمي: انت بنت... اخجلي!

انقباض فولاذي فتنتي تفتيتاً وطرر الدمع من عيني. فتشتت عن كلمة، عن جواب يوقف تهدج صوت والدي، فلم استطع...

ضربت الطاولة بالشوكة واندفعت.

في وسط الطريق أشعر بحقارتي أمام الناس.

من أنا؟ لا استطيع ان أجيب. انا كبائع العلكة اعيش بلا مأوى. انا كدولاب السيارة التائه لا استطيع ان أغير اتجاهي.

البكلوريا سراب بهرني من بعيد.

فالى أين أمضي؟

ركلنتي الاقدام على الرصيف. هبطت الى حافة الشارع لأهرب من الناس الهاجمين على أعمالهم، فزعق بي سائق سيارة. أكملت اجتياز الشارع. اشار الى الشرطي ان اسرع، لمستني سيارة خارجة بتمهل، بدأت الشتائم تنهال عليّ.

إنما انا ثقيلة...

هبط الثقل على كتفي، على ظهري، على قدمي فشعرت بالألم يكبل مفاصلي كلها.

أين أنا؟ ولماذا أعيش؟ ولماذا أسير؟ ولماذا لا انتحر؟

ارتفعت يد غليظة في وجهي ووريقات ملونة: "السحب اليوم - عشرون الف ليرة - السحب اليوم يا صاحب الحظ..."

وما حظي؟

تمنيت لو يركع أمامي هذا البائع الهزيل لأمزقه بأسناني، لأدوس له ورقات سخافته، لأقضي على العشرين الف ليرة، لأقضي على المال الحرام، لأقضي على ثروة والدي السوداء، لكنه يركع ولم يتوقف عند الشرر الطائر من عيني.

البائع أفضل مني، لأنه يسعى خلف غاية.

وانا؟ أي زاوية في هذا الشارع تستقبلني دون ثمن؟

أدرت ظهري على خاطرة سريعة وبدأت أركض، اركض بهدف، هدف الوصول الى المصلوب في الكنيسة...

وفي الكنيسة أنا وحدي بين الجدران الضخمة.

تملكني الخوف وأنا افتش بين المقاعد الكثيرة عن رأس عجوز او سبحة امرأة ملهوفة او عين كاهن متبتل...

لكن لم أجد سوى شمعتين في منتصف عمرهما ترتعشان أمام الصورة المعتمة وجسد المسيح...

جررت نفسي بخشوع... وأمام النور المرتجف ارتجفت قوتي وانهرت على الرض أبكي عند قدمي المسيح: "يا يسوم لماذا خلقتني؟ يا يسوع لماذا كونتني فتاة؟ يا يسوع لماذا لا تميت أبي؟ يا يسوع لماذا لا تقتل الخنزير الوسخ؟ يا يسوع، ساعدني!"

انتظرت ان يتحرك فم يسوع ويتكلم لكنه لم يجبني، لم يهدئ الهلع المجنون في صدري فأمسكت الصورة بكلتا يدي وبدأت أهزها واصرخ: يا يسوع، يا يسوع، يا يسوع، يا يسوع... ولم يتحرك يسوع...

خبطت الصورة بالأرض ودست الشمعتين بحذائي ثم لذت بالفرار.

عند الباب كبلتني يدان قويتان فاستدرت بحنق لاصطدم بكاهن، بالكاهن الذي راقبني قبل الظهر...

جرتني اليدان بذل الى غرفة صغيرة عند الباب فلم أقوم - لم أتأمل الوجه المحقق في... تركت نفسي ارتمي بين يديه وأنهار متراخية شاحبة على أريكة واسعة.

انتظرت ان يتكلم. انتظرت ان يرفع يده ويبدأ بصفعي ثم يضعني تحت قدميه ويرفسي لكنه ثبت نظره على عيني وظل محملاً فيّ.

انتفضت بوجهه: "ماذا تريد اذا؟"

لم يجب. واندفعت نحو الباب لأهرب لكن كفه الجبارة - مرة أخرى - سمرتني وجرتني بليونة الى مريضى الاول، وقرب كرسيه مني وسحب من صدره صليباً كبيراً وقدمه اليّ لأقبله. الصليب امامي ينتظر قبلة... مسكين! فتورتي عليه تتجدد. وفكري يحدثني بأن انتزعه من اليد الممسكة بي وألقي به تحت قدمي. اللعنة... على الناس، على الكاهن، على الشموع، على قبة الكنيسة على العجوز التي دلتني على هذا الملجأ.

هزني الكاهن: "هل ارتحت الآن؟"

عن أي راحة أفتش؟ أي راحة يمكن ان أعثر عليها الآن؟

وقرب أنفه من وجهي: "هل هدأت أعصابك."

أعصابي بحاجة للهدوء!

يجب ان أسكت الحاح هذا العمود الأسود "نعم ارتحت ماذا تريد."

لم يتكلم: أشاح بنظره عني مع كرسيه واستدار يقفل الباب ويدخل من باب صغير في مؤخرة الغرفة الى قيو ثان.

يغزوني الخوف وانا وحدي. الخوف من الباب المقفل، الكرسي القريب، الاريكة التي تتسع لجسدين، الغرفة الثانية، الصليب المدلى على صدر الكاهن.

أي هدف ساقني الى هنا. ولماذا أجلس وحدي.

قطعت تساؤلي القامة السوداء ويد ترفع رزمة من الرسوم رمتها في حضني مشتتة ثم اقتربت واخذت تتكلم.

اللهات الدافئ، المنبعث من بين الشفتين الغليظتين يحلح الحرارة في رأس انفي، في عيني، وفي ذقني.

- انظري "يسوع" في طريقه الى الجلجلة، تأملي العروق في عنقه، تأملي ثقل الصليب، تأملي، تأملي.

ونظرت أبحث عن يسوع والعروق والجلادين والصليب ولا أرى الا الباب المغلق والغرفة الثانية والأريكة التي تتسع لجسدين والصليب المدلى فوق الثوب الفاحم.

أمسكني الكاهن بيدي، يده ضخمة ومريحة. قال لي: تأملي يا ابنتي يسوع... والعذاب... لم يحاول مرة ان ييأس... ويجدر بنا ان نتحمل مصائبنا بصبر فلا... ولا... ولا...

وتائهة رحت الى وجهه اتفحصه: وجه ناحل حائر بين الاسمرار والاصفرار، عينان سوداوان كبيرتان. انف عظيم. شفتان تميلان الى الغلاظة. شامة كبيرة سوداء بين اذنه اليمنى وطرف عينه. شعر قصير متمرد. كفان غليظتان حازمتان تزحفان نحوي وتهزانني: ما اسمك؟

- ماذا يهمك من معرفة اسمي؟

وانفلق شدقاه، وهبط الرأس نحو الأرض، وانزاحت القدم الى الامام ترسم على البلاط مربعات متشابكة...

تأملت عنقه العاري الجذاب، تأملت مؤخرة رأسه المشوي، تأملت خفه الاسود السميك وشعرت بهدوء وأنا أصل الى يده الغليظة الخالصة من لمعان محبس.

هذا الكاهن بتول... لم يعرف امرأة بعد، لم يستعمل آلة للانجاب.

لو كان والدي كاهناً لما وجدت لو كنت انا في غرفة مغلقة مع رجل غير هذا لاجتاحتي أفكار أخرى. لو قبلت بالزواج منذ سنة لكنك الآن حبلى.

ارتفعت الرأس المحنية بهدوء:

- ابنتي... اعرفي ان الكاهن ملزم بكتمان اسخف الاسرار؛ وليس عجيباً ان تقع فتاة في مأزق. في مثل هذه الحالة يجدر بها ان تستعين بأبيها الروحي الذي هو الكاهن... لماذا أنت هنا الآن؟

لماذا أنا هنا؟

وأطبق على تساؤلي فمه المنبلج عن كلمات: قبل الظهر تأملتك تبكين أمام المصلوب، والآن رأيتك من نافذتي تتوجهين الى الكنيسة. وعلى النافذة العليا جلست اتأملك. سمعت صوتك العالي ونداءك الحاد ورأيتك تحطمين الصورة وترتجفين غيظاً ويأساً، فاندفعت اساعدك... سأكون أماً لك، قصي على كل شيء.

ونظر اليّ ينتظر الجواب، لم أتكلم، لم أزح نظري عن جبهته الواسعة ففيها عالم من الصور وورقة تستنقر التسطير عليها.

أتأمله وانتظر منه ان يرفع يده ويصفعني ويقذف بي كالذئب الجائع الى الشارع.

فشدني بيدي: ارجوك، انا أتعذب معك. لا تخجلي. اعتبري انني أخ لك. قولي: هل خانك شاب؟ هل اغتصبك رجل. لا تخجلي هل اغتصبك رجل؟

وشعرت بالنار تغلي في كل جزء من جسدي فانتفضت في وجهه. غرزت اظفري بالمقعد وحاولت أن أفجر صوتي، حاولت ان أكم فمه الوسخ. فلم استطع.

لهائي المتلاحق يكبل لساني واللعب يسدّ منفذ الكلمات. وانفجرت.

ضربت المقعد بكفي. رفست الكرسي بقدمي ورحت اصرخ: لا. انا لا يغتصبي رجل. انا لا يخونني شاب. كذاب، كذاب هذا الذي يقول لك. منافق.

وهرعت الى الباب أهزه بكل قوتي، هجمت على الباب الثاني، على الكاهن أهزه بكتفيه: "افتح لي الباب" - "افتح الباب".

أمسكت بأبريق زجاجي وقذفت به الأرض: "افتح الباب". ثم ارتميت فوق الحطام أقلبه بيدي، واندفعت بقوة الى الشارع.

أين أنا؟

على يدي نقط دم. قرّبت كفي من وجهي، من انفي لأشم رائحة الدم. قرّبت كفي من عيني لأرى الدم وعندما ميزت الجروح في يدي انهزت على الأرض.

هل أغمي عليّ؟

الناس لا تزال تتحرك أمامي والجرس العالي يريض بسكون فوق الكنيسة.

تجمع حولي الناس: امرأتان وفتاة صغيرة وشاب ورجل بطربوش وبائع أمشاط...

انحنيت فوقي امرأة تسأل: "ما بك يا ابنتي؟"

ماذا بي؟ لماذا وقعت؟ لماذا لم يغم عليّ؟

ارجوك ساعديني على الوقوف فأنا أشعر بدوخة.

وقفت وسط الحلقة أنفض التراب عن ثوبي فينلوث بالدم وأمسح رجلي فنتلوثان بالدم وامسح وجهي فينلوث بالدم.

"حرام ضعيفة" يقول بائع الأمشاط. وتجيب فتاة صغيرة: "مسكينة، أوصلوها الى البيت". ويكثر الضجيج ويعلو ويعلو وأنا لا أرى الا الدم.

سألتي عجوز: "أين بيتك يا حبيبتى؟"

تؤلمني كلمة "بيتك".

أين بيتي.

"ليس لي بيت يا سيدتي" قلت وانسحبت خارج الحلقة أتأمل يدي المجروحة وثوبي الملطخ وشعري المنكوش  
وقدمي الملوثنين بالدم.

أين أمضي؟

أين تلتجئ فتاة شريفة مثلي. الى الكنيسة. الى الشارع. الى السطوح. المحلات التجارية. بيوت الأثرياء. البيت.  
البيت، لأعود الى السجن المحكم.

صرخت أمي: "ندى ما بك. ويلا!" ووقعت الخادمة عند قدمي: "اقبريني قبل ان يصيبك شيء" ووقف والدي  
عند النافذة: "ماذا بها. ماذا؟"

تسللت الى غرفتي أقف شاردة أمام المرأة. أهكذا كنت أسير في الشارع.

لحقت بي أمي تولول: "حبيبتى... ماذا تريدين؟ ارحمي والدك، ارحمي قلبي الضعيف .. اشفقي على سمعة  
اهلك. ندى، ماذا تريدين؟"

وهجم والدي محتدأً: "من أين الدم؟" ثم أمسك رأسي، رفع عيني الى وجهه، هبط الى قدمي، يتحسس الجرح في  
يدي.

وصرخ: "بماذا جرحت نفسك؟"

وولولت امي: "يا الله، ويلي، عرفت، عرفت... حاولت ان تنتحر ستقتل نفسها، ستقضي على البيت كله .. لن  
ترتاح الا عندما تدمر هذه العائلة كلها!"

وددت لو انقض على فمها أمرمغه بحذاء ما لكني اخاف... أخاف والدي فوالدي كلمة "مستحيل" مضخمة:  
مستحيل ان أعمل، مستحيل ان ألوث سمعته. وبعد ساعتين من الانفراد بنفسي في الغرفة طقطق "المستحيل"  
باب غرفتي ودخل بجبينه المقطب وفمه الضخم المرتجف والسم المتطاير شرراً من عينيه:

- اسمعي... ندى، أين كنت؟

وددت لو اضحك لأقهره، فأكمل:

- ندى أريد أن اضع حداً نهائياً لهذه المهزلة. أين كنت؟

وتولاني فزع مفاجئ: في الكنيسة.

فغمز بعينه الشريرة وهو ييصق غضبه: عرفت. كنت في الكنيسة. عرفت كل شيء. لماذا خرجت دون ان تكلمي طعامك؟ لماذا حطمت الصحون على الطاولة؟

"انتبهى يا ندى. لا اعتقد ان هناك أباً يكرس نفسه مثلي لراحة ابنائه ولا أظن ان بيتاً كبيتنا يوقف نفسه لخدمة فتاة وسخة مثلك دون ان تعرف له جميلاً.

"لقد قمت بواجبي نحوك على أوسع وجه والآن انت حرة، واعتقد ان فتاة الثامنة عشرة يجب ان تقرر لنفسها طريقاً. بصراحة أقول لك انني نفضت يدي من جميع أمورك فاشتغلي، هيمي في الشوارع، حطمي أواني الكنائس. لا يهمني، ما دمت قد خيبت كل آمالي."

انت حرة، حرة. لا أريد ان أسمع عنك شيئاً بعد الآن ولا ان أهتم بمشاكلك. خذي، هذه كمية من المال، دبري فيها أمرك فأنت حرة...

تأملت والدي وهو يخرج من الغرفة. تأملت الجدران الباهتة. تأملت الأرض الشاحبة. تأملت كوم الكتب وطاولة الزينة. تأملت النافذة الكبيرة والستائر المسدلة فوقها.

هل انا حرة!؟

ماذا يحوي هذا الغلاف. خمسون ليرة لي، هي كل ثروتي. كل حصتي من أهلي. خمسون ليرة ثمن حزمة من العقد خلفها هذا البيت في نفسي.

نعم، "يجب" ان أمضي...

"انت حرة" وقفت بوجهي، صفعتني، طمرتني، ففتحت عيني جيداً مددت يدي لأمسك بها، لأشدها الى صدري، لأقول لها: ابقني معي.

انا حرة. اسدلت الستار على النافذة: انا حرة. قلبت الفراش عن السرير: انا حرة. قذفت قنينة العطر عن الطاولة: انا حرة... انا حرة... لكنني لا أزال في الغرفة، هنا، في الغرفة، "وانا حرة" تضمحل وتتلاشى من امامي.

متى "اصبح" حرة؟

الساعة الثالثة والنصف. سأصرف في هذا البيت ليلة واحدة فقط... غداً يجب أن أرحل.

انزلت ثيابي من الخزانة لأطويها فنار علي الغبار وتكوّم على شعري يكتب: انت حرة. انزلت الأوراق الخضراء  
فخششت: حرة. وكومت كدس الألوان المتنافرة فصرخت: حرة!

انا حرة في أشياء ليست أجراً لعريقي فيا للسخف!

تلزمني حقيبة أخرى غير حقيبتني لأضع كل هذه الثياب التي لي.

وحملت أغراضي الى الشارع.

الآن أتصرف بحرية فأسير، أخبط البلاط، وأدخل المخزن، أشتري، أدفع، أحمل وأعود وأضحك من الحقيبة  
الكبرى المتدلّية من يدي ومن رغبتني في التهام مناظر طرابلس ومن حملقتني في ساعة التل الكبيرة ومن هربي  
من عيون معارفي ومن الدهشة التي أخلفها في الوجوه.

سمعت شاباً يصفر من أعلى المقهى: "جورج جورج، انظر ندى ماذا تحمل".

تمنيت لو أخبر الجميع انني ذاهبة، لكن الى أين؟

ماذا افعل في بيروت؟ أين اسكن؟ كيف أعيش؟

انقباض مرّ في قلبي أخنقه ويعود. وأعود الى البيت، وأتمتع برؤية امي تدفن عينيها بمنديل والخادمة تلهث  
باكية وهي تغسل الصحون وأبي ينطوي غاضباً داخل كرسيه في الصالون.

شعور غريب اجتاحني بعدما رزمت ثيابي وحوائجي.

هل انا مسرورة. هل انا حزينة. هل انا نادمة. هل يعذبني ضميري لا ادري. أشعر انه علي ان أهرب من هذا  
السجن النتن.

وانا أهرب في الطريق خنقتني الدموع، فبدأت أركض، اتمايل، ادوس الأرصفة بقوة، اجتاز المنعطفات بسرعة  
دون ان أتأمل واجهات المحلات، دون ان اتألم لارتطامي ببائعي العلكة، دون ان احبي صاحب القبان  
المسمّر قرب ا. ب. ث. أسير بلا حواس، دون ان أسمع، دون أن أرى، دون ان أهتر لمراى امرأة حبلى!

يلذّني انتحار الوقت تحت قدمي ودهس طنات الساعة: طن طن... الساعة الخامسة. الساعة السادسة.  
الساعة السابعة، الساعة السابعة والنصف.

ناولت بائع البوظة ربع ليرة وانسحبت من بين ثلاثة شبان يتأملونني وسرت نحو البيت، لأنام للمرة الأخيرة في  
هذا البيت، لأنأمل الخزانة الفارغة والحقائب المحزّمة، ولأبني صورة مستقبل غامض لا يشاركني فراشه رجل!

\*\*\*\*\*

§§§§§§§§§§§§§§§§§§§§ **الفصل 11** §§§§§§§§§§§§§§§§§§§§

أين أمضي؟

نحن خمسة ركاب متراصين في سيارة المرسيدس الطائرة بنا من طرابلس الى بيروت.

حدّي رجل خمسيني يلتصق بامرأة، وحد السائق شاب متأق يغمر فتاة.

أين أمضي؟

وحدي اليوم أفتح الطريق، أتصرف بحرية، اتنفس بلا قيد، امد رجلي على طولهما في السيارة دون ان تعقصني عين والدي ودون ان تعض اسنانه الضخمة شفته "عيب"...

بعد ساعة أناول السائق من محفظتي ليرتين، من محفظتي... فأخلق علامة استفهام في عينيه وهو يسألني: الى أين؟

صحيح: الى أين؟

عنق السائق الاسمر عنق جذاب، ممثلى يؤلف الشعر النابت فيه سواقي خفيفة وتترك التميلات عليه ثنايا ناعمة لطيفة.

لماذا يدغدغني عنق رجل. لكن هوذا القرف يعود اليّ أدراجه.

أدار الشاب الأمامي رأسه يتفحصني، يلتهمني، يعبني عباً.

ما الذي يثير هذا الرجل في مذهري. أبعدت خصل الشعر المبعثرة على جبتهي وكبلتها بملقط لكن الشاب عاد يلوك وجهي بطرف عينيه...

أزحت وجهي نحو الخارج، كدت ألقى به من النافذة المفتوحة، تركته يتصافح والهواء، يهمني فقط ان أبدأ بحماية نفسي بنفسي... لكن العين الوقحة ظلت تحمق في الهزيل الهارب.

لماذا يفرفر في صدري هذا النبض التائه.

عينا الشاب تهددانني ويداه تشيران الى اقنومي وهما تنفكان عن الكتف المغناج لترتفع الى الطوق الرمادي قرب عنقه المشوي فتشدا حوله الرباط اللامع. وتدللان الذقن بلمسات وتدغدا الاذن بقرصات دافئة وتناغيا الشعر المتمرد القصير يتململ بطيء ما بين الحرش الكث، وعيناه تحشدان كدساً من الأفكار الملعونة في الرأس الاجاصي المذنب.

يجب ان أتحدى هذا المائع المتهالك على وجهي... يجب ان ابدأ بحماية نفسي بنفسي.

عندما تثنى عنقه نحوي جمعت حدة عيني وصببتها بشراسة على بريق فمه المحشو شهوة فحول نظره مكسوفاً نحو الرجل الجالس قربي يفتش عن مهرب وقال مشيراً الى جريدة أمامه.

هل قرأت الجريدة اليوم؟

- لا... -

- مقالها الافتتاحي رائع... رائع... -

- افتتاحيتها دائماً فظيعة.

وربنت يد المرأة قربي على عنق الفتاة الامامية تسأل:

هل تعافت امك؟

لسنا كلنا غرباء في السيارة... انا والسائق غريبان، وحيدان نسير نحو غاية واحدة. فنحن نبحث عن الرزق.

وتمنيت لو أمر بيدي على عنق السائق المشوي احمراراً أسأله عن عمله، عن كيانه، عن حرته، لكنه انحسر في الجدل الذي اتسع وتضخم بين الشاب والجسد الضخم قربي حول العهد والرئيس شهاب والحكومة المهتدة بالانهيار والنواب المأجورين والمعارضة المبتذلة.

لي في كل هذه الشؤون رأي خاص فهل أدس انفي في الجدل؟

ربنت المرأة أمامي على ظهر الفتاة تسألها:

- ما رأيك؟

فحركت رأسها ضاحكة:

- دعي السياسة للرجال.

السياسة للرجال!... والكيانات لهم، والمكانة، والحرية، والمال، والمنازل الخاصة، والسيارات!

وانا ماذا لي؟ انا المرأة ماذا لي غير ان أدفن آرائي الصائبة في السياسة لأترك للرجال وأحطم باب السيارة في ساحة الشهداء واسوق رجلاً عتالاً أمامي بليرة ثم أرتمي في جوف تاكسي وأشير للسائق بأن يتجه الى الفندق الوضيع الذي كان يسكنه قريب فقير لأمي.

غرفتي في الفندق تضيق عليّ الخناق وتبصقني ببابها العتيق فنتلقاني الدار الواسعة. وتعود تبصقني وأظل أدخل وأغور حتى أجدني في الشارع ثم في السرفيس ثم امام بناية صفراء...

في الطابق الرابع تعيش رفيقة قديمة لي كانت تتعلم معي في المدرسة.

انها الوحيدة التي أعرفها في بيروت. والوحيدة التي تلزمني مساعدتها فالمسؤولية ترهقني، تحطمني وتجري من عنقي لإشراك شخص آخر في تقرير مصيري.

حاراً دافئاً كان لقائي بها. اسمها مادلين حجار. وحين تهالكت عليها اشبعها تقبيلاً كنت أتساءل: أهي الحاجة التي تدفني ام الشوق. تعلقت بقامتها الطويلة شددتها بعنف ووحشية، ثم ارتيمت بها على كرسي عريض.

وحدها في البيت. وجدتها تشجعي لألقي بثقلي عن كاهلي فأحدثها عن خطوتي الجديدة وافهمها انني ابحت عن عمل، عن سند، عن شيء يكون لي، لي أنا، المرأة.

وفي الفندق عادت المسؤولية بأشباحها.

تجمعت الأفكار في رأسي حتى كادت تفجرها. وترسبت كلمة لجوجة: "السياسة للرجال".

نهضت. أمسكت بالوسادة أشتتها، أصرخ. "الرجال للجحيم" "الرجال للمجارير..."، "الرجال لنهش اللحوم النتنة"، ثم انهرت وارتيمت فريسة لأفكار أخرى...

في الغد ماذا أفعل؟

مادلين وعدتني ان تكلم والدها ليدبر لي عملاً في الشركة حيث يعمل.

وفي محفظتي مئة ليرة، فقط، بين هبة والدي والخمسين ليرة التي كانت معي... مئة ليرة تكفيني لشهر واحد في هذا الفندق مهما اقتصدت.

وبعد ان تنفذ؟

اطفأت النور الضئيل فريض نَقَل هائل على صدري، هائل حتى الموت؟

أعدت النور وقمت أقرب الكرسي الخشبي من الطاقة الصغيرة، واقف فوقه، أتأمل الشارع الضيق والاضاءة الساطعة والحركة البطيئة التي تنازع معها الحياة في الحي كله.

لمن يسطع هذا المصباح؟ لماذا ينام الناس في الليل! لماذا أقيم في هذا الفندق الوضيع؟

ثم هذا الشلال من الأخيلة: السيارة الهاربة بي من طرابلس، الشاب الوقح، الفتاة التي تؤمن ان السياسة للرجال، والدي الحازم الظالم. امي المنزوية تبكي في غرفتها، الخادمة المطبقة على دموعها بجهد.

متى كان والدي ظالماً كهذه المرة؟ متى كان مستهتراً يتركني انا ابنته الوحيدة أحزم حقائبي وأمشي دون وداع، دون كلمة ولو كلمة عطف واحدة؟

وانا لا أحن اليه، لا أطيق سماع اسمه بعد الآن، لا اريد ان يتدخل في شؤوني.

طلبت في الصباح من والد مادلين الا يخبره شيئاً عني.

اجد لذة في ضجة الترام وانا اهبط الى البرج.

جلس قبالتني عتال شاب وأخذ يحملق في المحفظة الصغيرة بين أصابعي فضحكت.

لو عرف العتال ماذا تحوي لرفع رأسه عالياً، ولاشرأبت محفظته تضحك من محفظتي التي تضم ليرتين وعشرة قروش سأدفع منها الآن خمسة وأترك الخمسة للعودة.

احتلت مكان العتال راهبة من راهبات الرحمة فلذتني قبعتها الكبيرة البيضاء وشدتني رغبة ملحة للتحدث اليها والتوغل في عينيها الحالمتين. وعندما تأرجح قربها قاطع التذاكر ماداً يده لم أشعر الا ويدي تهجم بالخمسة قروش عنها، فابتسمت لي متسائلة ثم سمرت نظرها في وجهي تغدق عليه دعة وحناناً.

كم انا جائعة للحنان؟

امام محلات غندور في العازارية انتبهت الى ان علي ان أصرف الليرتين لأدفع منها خمسة قروش أجرة الترام في طريق العودة فاشتريت قرص كعك وسرت أفضمه واسرح نظري بين قامات الرجال الزاحفين:

هذا يضحك، ذاك يبتسم وذلك يثرثر. وآخر يصرخ ويتعمشق ولهاً بساقي فتاة... خيل اليّ ان القامات الفارغة تميع حتى تتحول الى عصير اسود نتن يسيل على الأرصفة.

نصحتني خيال امرأة تحمل محفظة سوداء وكتاباً ضخماً ورزماً زرقاء.

هنيئاً لها. انها طبعاً صحافية او سكرتيرة. لماذا لا أكون مثلها لي مكانتي وقوتي، لماذا لا اجرؤ على طلب عمل. لماذا أرتعد كلما وقف في وجهي صاحب مكتبة؟

يخيل اليّ ان كل فم في هذا الشارع العريض يضحك من تشردي، من خوفي، من اقنومي الضعيف.

واكملت اتسكع، اتعرف على الأزقة الكثيرة المتشعبة من الشارع الهائج فاسير فيها واتأملها وألملم صورها لتكون زادي في الغد وانا اكمل عملية التسكع والتفتيش عن عمل.

قالت لي المرأة السمينة عند مدخل غرفتي ان مادلين تريد ان اذهب توأ إليها، فاندفعت اهبط الدرج الخشبي الضيق. وكدت انترحل فوق طفل صغير يلعب. لو فعلت فكنت سأسكته بخمسة قروش واذا أمعن فبعشرة...

ويلي! متى كان للنقود هذه القيمة عندي!

لفني وجه مادلين بعطف جرح كبريائي فكظمت امتعاضي واندست داخل غرفتها الحلوة ارتمي مرهقة على سريرها وأستعد لسيل جارف من الكلام ألمحه عبر عينيها.

ما بها لا تكلمني الا عن المدرسة التي تتعلم فيها الضرب على الآلة وعن المستقبل الباهر الذي ينتظرها وعن رفضها للزواج من قريبها الافريقي وعن عروس شقيقها الفرنسية؟

لماذا أرسلت تستدعيني اذا؟

أجابني الفم الممدود بصفعة قاسية.

- دعوتك لتناول الغداء معاً.

الأجل هذا؟

كنت اعتقد انها دبرت لي عملاً مع والدها!

هل أعتذر أم أبقى وأوفر ثمن غداء؟

أحسست، وانا أستقر على الرأي الثاني، بضربة قوية تسحق كرامتي.

متى كنت أقبل مثل "هذه" الدعوات؟ متى كنت أفكر بتوفير ثمن غداء تافه؟

وعندما لملمت أشلاء غرتي ورفعت يدي مودعة قررت ان تكون وقفتي في هذا الباب هي الوقفة الأخيرة فلا أترك سبيلاً مرة أخرى لأن تُداس كرامتي في سبيل توفير قطع معدنية!

لم انزل من الترام عند البرج بل أكملت حتى باب ادريس أحملق هناك بأصحاب المحلات، بالعمال، بالمراهقين، بالمشتريين...

يجب ان أفنش عن مصيري!

سألت امرأة تتأبط محفظة بنية غبراء:

"هل تعرفين أحداً بحاجة الى سكرتيرة؟"

ضحكت وهي تهز كتفيها وأكملت طريقها فلم أشعر بالصدمة. سؤالي كان سخيلاً.

تعلقت بفتاة أخرى: "ارجوك هل تعرفين محلاً يريد فتاة للعمل؟"

ضحكت لي برقة، بعطف وهي تقول: يا ليت؟ الشغل يا حبيبتي هذه الأيام أصعب مشكلة".

توغلت حتى آخر سوق الطويلة، ساومت على ثوب احمر في محل، كأني فتاة تملك ثمن ثوب. تأملت النساء الزاحفات في الشارع الضيق، عدت أزوغ قرب ال أ. ب. ث. رجعت أندس في سوق الطويلة. رجعت اقصد بناية العازارية. أمسح انفي بواجهاث المكاتب ومحلات الأحذية.

عند المساء كانت رواسب ثورتي تنتظرني في الغرفة النتنة.

لن أغير هذا الثوب الأخضر المكسر حول جسدي. فقد أضطر الى بيع ثيابي في نهاية الشهر. فأسير على رصيف يعج بالناس وعلى يدي كوم من الثياب وصوتي الهزيل يصرخ: ثياب عتيقة للبيع...

امتدت اصابعي الى وجهي تعصره والى شعري تشده وتفككه، ففرت دمعة لاهبة من عيني وارتخت اعصابي.

من العبث ان أحاول طمس الصورة البشعة: ثيابي على يدي وفمي الضعيف يصرخ: ثياب عتيقة للبيع...

بقي الصوت يتردد في اذني والثياب ترتفع في وجه المارة: هذا ثوب جديد، هذا انيق، هذا لم يدشن بعد.

ازدادت الصورة بشاعة أمامي: الكومة تأوي في الليل الى مدخل بناية بعدما يقذف بها الفندق الرطب الى الشارع فيمر عتال يسأل: كم تساوي البضاعة؟ كي يساوي جسد فتاة مرمي في مدخل بناية؟ كي يساوي الشرف الضائع؟

ارتفع صدري وهبط عن شهقة عالية وانحلت أعصابي مع شبه غيمة سوداء بدأت تسدل ستارها على بصري... فقبضت بيدي على عنقي، حزمت ثوبي على رجلي، شددت، لأصد يد العتال المتسلسلة الى جسدي، وارتمت الغيمة بكاملها على وجهي فضعت...

لماذا تصفعين هذه اليد الضخمة؟ تحركت شفتنا صاحبة الفندق، فرفعت كتفي عن الوسادة استقبل عبر اسناني المبكلة سائلاً بارداً أيقظني.

- ما هذا؟ هل انت جائعة؟ أين كنت؟ هذا الصوت يبعث على التقزز.

أين كنت؟ متى نمت؟ كم الساعة؟ لماذا ينعس هذا الضوء الضئيل في الغرفة؟

انها النوبة العصبية - انها "النقطة" التي أُصاب بها كما تسميها الخادمة...

ورفعت عن الطاولة شظية مرآة نحو وجهي أرنو الى الهزال وألوك سيلاً من الأسئلة: لماذا جررت ضعفي الى

هنا؟ لماذا لم أبق في كنف أمي تصد عني حدة هذه العين المحدقة بي؟

لماذا أعيش؟ من حملني على الهرب؟

وصففتُ أمامي خيوط حياتي: خيل اليّ ان الخنزير الوسخ يشدها فتضعف وتتفكك. خيل اليّ ان الخيوط تتفتق

عن طفل ملوثٍ بالدم وعن امرأة وضعف...

انتفضت أصبح أنا ام؟ أصبح يعبث بجسدي عتال؟ أصبح سأصبح أما؟ مستحيل!

فانا أكره الأطفال!...

\*\*\*\*\*





حين كررت سؤالي وأقنعت به أن الزبائن ترغب في بائعة فتاة أكثر مما ترغب في بائع ذكر انفرجت اساريره ضاحكاً:

- الحق معك سيتهافت علينا الرجال خاصة ليتلذذوا بمراك عند أقدامهم، الحق معك. متى تبدأين العمل؟

وانسدل ستار كثيف على عيني: سيتهافت عليها الرجال خاصة ليتلذذوا بمراك عن أقدامهم.

كم؟ مئة ليرة أركع لأجلها عند أقدامهم؟

استدرت أخرج من الجو المشبع برائحة الأحذية دون أن أبالي بالخادم الذي حاول إمساكي.

أود لو أصرخ بوجه المارة: مستحيل! أود لو اصفع كل رجل في هذا المحل لأقول له مستحيل! مستحيل ان تستمد مني لذة فأنا لست امرأة. انا كيان!

وأنعم علي الشارع المزدهم بالهدوء فتتأببت أتأمل القامات المتسابقة للمرور وشرطي السير والنساء الناعمات بمقود سيارة!

لكن هوذا وجه مستطيل يتفرس في من على الرصيف المقابل... هذا الشاب أعرفه من طرابلس، وأخافه. أخاف الشك في عينيه وهو يتتبعني... يجب ان أختفي! يجب الا يراني بهذه الثياب الوسخة. أسرع. أسرع. خيل الي ان الوجه المستطيل يلحق بي، يمسك بعنقي، يهزأ ضاحكاً: يا للعيب! انظروا كيف أصبحت ندى خوري! وأكملت مسرعة حتى ارتميت لاهثة في جوف الترام.

قالت لي صاحبة الفندق وانا ادس المفتاح في باب الغرفة: أين كنت؟ لم أجبها.

ارتميت على السرير اللاهب ألهث، وأشد بأصابعي على بطني الخاوي، فالجوع يهدني، ويذيبني. قالت لي المرأة على الحائط: عودي الى البيت.

قالت لي عينان الغارقتان: عودي الى البيت. وقالت لي الهالات السوداء في وجهي: عودي ما دمت قد أخفقت... وأنفي الطويل وشفثاي المزرقتان هتفت: ترى متى تموتين؟ وتخيلت نفسي ميتة على السرير الحديدي وصاحبة الفندق تعبت بأشياء باحثة عن دراهمي القليلة. متى سأموت؟

كومت صاحبة الفندق مؤخرتها العريضة على الكرسي المكسور تطقطقه ثم تتحنث قائلة:

- لماذا تتهربين من صديقتك مادلين؟

وعندما أجبتها "أنا حرة" تاهت في وجهي الهزيل ثم سعلت بتقطع وهزت رأسها وخرجت.

مادلين تلح في طلبي. هل يكمن والدي وراء الحاحها؟ مسكين. أترأه ندم على سلوكه معي؟ أترأه لمس ان شرفه قد تلوث بغيابي؟ أترأه انتقم من امي الضعيفة بلسع سوطه على جسدها المترهل؟

وحسبت انني اسمع صراخ امي يفتت الجدران ونوافذ الجيران فيتدافعون حول الطاقات يسحبون بأذانهم المرفهة كل كلمة ترسل ليحيكوا في ما بعد الحكايات الطويلة.

مسكينة أمي.

ومسكينة امعائي الخاوية.

سددتها برغيف فلافل ورجعت الى الترام.

المقعد المقشش الفارغ تجاهي يقهرني، يؤلمني، يشير اليّ قائلاً: فقيرة لا تستطيع محفظتك دفع عشرة قروش مقابل التشرف بالجلوس علي... .

أدرت له ظهري فاوماً لي شاب أسمر يلتهمني بعينه وتخلي لي عن مكانه.

لماذا يتنازل الرجل عن مكانه للمرأة؟ لأنها أضعف منه؟ لا، كان باستطاعتي ان أظل واقفة ولا أتعب.

سخيفة هذه التقاليد.

انصبت علي حرارة الشاب الأسمر تتدفق غزيرة وهو ينفخ بسيكارته قوف رأسي. فسرت بي قشعريرة دافئة وانا أحاول ان انتزع نظري عن قامته التي تحتضني بهدوء واحتشام.

أين لي هذا الهدوء والشباب الأسمر يتأملني، يلتهمني، تنصب حرارته على جسدي الهزيل على جسدي كله عبر فتحة ثوبي؟

هل يأخذ مني لذة ثمن تنازله لي عن الكرسي؟

أخاف ان أبحث عن الحقيقة في مواجهة عينيه فأشحت بنظري الى الخارج لكن فكري ظل مشدوداً اليه، الى سمرة جبينه الدافئة وعينيه المفعمتين بالنار، ورأسه المتحركة "بفضلي" ويده القوية الممسكة بالكرسي ورائي.

لم يهم بالنزول في ساحة الشهداء. قال للمرأة التي وقفت: انزلي انت وانا سأكمل حتى باب ادريس...

حتى باب ادريس سيظل يستمد مني لذة.

قمت أهرب دون وعي، وأمام أحد المقاهي اصطدمت بزمرة من الشبان يتدافعون برخاوة فأسرعت.

شعور مر بضعتي يحفزني لأسرع لأركض لأهرب من أخيلة كثيرة وتتدافع في رأسي لإذلالني.

امتد انف ورائي الى واجهة مكتبة يسأل البائع عن كتاب فلسفة فاستدرت لاتفحص الانف الممتد.

الشاب الاسمر! الشاب الذي تنازل لي عن مكانه في الترام! الشاب الذي استمد من جسدي لذة!

لم أترجع امام تطلعه فيّ. كل شيء فيّ يتساءل: لماذا يتبعني هذا الرجل؟ لماذا لم يكمل حتى باب ادريس؟

قطعت الشارع حتى الرصيف المقابل، اندستت وسط الزحام الملتف عند الزاوية، قذفت برجلي علبة وقعت من يد طفل، اصطدمت ببائع جرائد، انسحبت من وجه بائع امشاط... اسرعت. اسرعت. علي ان اهرب، ان اختفي... ان اتخلص من العينين الكبيرتين الملتهبتين في وسط الوجه الاسمر.

قال لي الرجل السمين في محل بسوق الطويلة: متأسف لسنا بحاجة الآن لخادمة في المحل.

وقذفت بي كلمة "خادمة" على الحضيض كدودة رخوة، كبصقة ثقيلة، ثم وقفت مشدوهة، فالشاب الأسمر يعانق كتف رفيق له امامي.

حتّام يتبعني هذا الوسخ؟

امام فكرة "وسخ" استدرت نحوه لأرى هل هو وسخ، هل على أسنانه دود؟

هل اسنانه صفراء؟ هل اظافره محشوة بالتراب؟

كلا، بل انه نظيف، لكن النار تهبط عليّ من عينيه.

وللحظة تراءى لي ان أقترب منه وأقف أمامه وأطلب منه ان يشبع من البقلقة فيّ.

... وسرت أزوغ عند منعطف سوق الطويلة.

قالت امرأة ارستوقراطية للسائق وهي تشلح قدميها من السيارة الكبيرة السوداء: عد بعد ساعة.

كلمة "عد" ككلمة "لسنا بحاجة لخادمة" فهل أشبه انا سائق هذه السيارة؟

سرت وراء الارستوقراطية اتفحص مثلها الواجهاات، أساوم وأسأل، واحاول، واتأمل معها التابلو الاسمر الرائع.

هل تقبلني هذه السيدة خادمة؟

هبت في جسدي نار الفوضى فعضضت شفتي: ماذا نفعتني البكلوريا؟ لماذا انحط هكذا؟ لماذا لا انتحر؟

وملأت فكرة الانتحار رأسي غير ان بائع العلكة المتمسك بثوبي ابعدها عني نهائياً فضحكت وانا افكر: ان اشتغل بثمانين ليرة افضل من هذا التسكع.

تحرك الترام وانا اصعد اليه وكدت اقع لولا يد قوية احتضنتني بسرعة. وادرت ظهري فاحترقت بالنار تنصب من عيني الشاب الأسمر.

كدت أنهار. شعرب بشيء يتململ في ظهري مكان اليد التي احتضنتني هل أرمي بنفسي من الباب؟ هل أنصب على العين الملتهبة بالشتائم؟ هل أمزق جسدي الذي لمستته يد رجل؟

بقي الوجه الأسمر يلتهمني بشفقة وتوسل فهربت منه الى الداخل اتلهي بخضخضة الترام والرؤوس الراقصة معه. وعندما مددت يدي بالخمسة القروش لقاطع التذاكر بصق في وجهي كلمة مبسوطة: "مدفوع" فانقضت كالملسوعة: من أين لك الحق ان تقبل؟" واستدرت نحو الشاب الأسمر المنزوي في الزاوية قرب الباب، قذفت بوجهه الخمسة قروش وأصرخ وأرتجف. وتوقف الترام، وامسكني قاطع التذاكر بكثفي، وشدنتني سيده من يدي: "لا لزوم لكل هذا" وارتفعت الرؤوس من مؤخرة الترام تسال: ماذا جرى ماذا جرى؟

لم استطع ان اسكت، لم استطع ان اقطع حبل: "لا اريد" كان كل شيء في داخلي يصرخ بحدة. وعندما استأنف الترام سيره وانخفضت الرؤوس قالت لي الفتاة الجالسة قبالي: "ماذا حدث؟... فثرت: "كلب، كلب، الرجال كلاب".

\*\*\*\*\*

§§§§§§§§§§§§§§§§§§§§ **الفصل 14** §§§§§§§§§§§§§§§§§§§§

- مادلين تسأل عنك باستمرار.

أزحت المرأة السمينة وأغلقت الباب بعنف ورائي: لا اريد... لا اريد ان ابيع نفسي بخمسة قروش للوجه الأسمر. لا اريد ان ابيع كرامتي بغداء مادلين... لا اريد!

لبست ثوباً زهرياً وانتعلت خفاً خفيفاً وهممت ان أخرج غير اني تذكرت الوجه الأسمر والعيون التي تغلي بالنار فارتميت على السرير أبكي.

اين أمضي؟

صرخت بالوجه السمين البائن من الباب: "اخرجي انا متعبة" فلم تخرج صاحبة الفندق بل اكملت طريقها اليّ ونزّهت يدها على شعري، على جبھتي الباردة، على وجهي الغارق بالعرق:

- عصبيتك ستضرك كثيراً.

لم أجبها فلمساتها تسكرني!

واكملت:

ندی، لماذا تتهريين من مادلين؟

لم أجبها، صممت ان اطبق فمها على الكلمات المرصوفة في حلقها، هممت ان أطلب منها الاكثار من مداعبتي، من تمرير يدها على شعري ووجهي. فانا اريد ان اشعر بأن انساناً يعطف عليّ.

ولم اقو على الصمود. رميت رأسي على ركبتني وبدأت اجهش بالبكاء وتوسلت اليها ان تخرج وتوصد الباب خلفها، ووقعت على الارض.

تذكرت امي الضعيفة وابي الذي ينهار امام الدموع، تذكرت بلاط غرفتي الاملس. تذكرت سريري الوثير، ومحفظتي التي كانت محشوة.

رفعت رأسي بسرعة امام خيال الخنزير الوسخ.

من رمى بي في هذه الهوة؟

وخنقتني رغبة جامحة للتمزيق، لفقء العين التي نرى ان المرأة اقنوم ضعيف، ومررت بيدي على بطني، هل  
انا حبلى؟

في داخلي جنون يهتف: مستحيل: فانا اكره الاطفال.

\*\*\*\*\*



عندما وصل قاطع التذاكر اليّ مد الشاب الاسمر يده بعشرة قروش هاذياً: "هل تسمحين؟" لفظتها شفتاه بتوسل غير اني رفضت شاكرة وعدت أتأمل الشارع الواسع...

لماذا لم أثر؟ لماذا لا أبصق بوجهه حتى يكف عن مطاردتي؟ لماذا لا امرغ شفتيه بحذائي؟

لكن شفتيه تقتربان مني: "ارجوك اسمحي ان اكلمك قليلاً ثم أعدك بأن اختفي من أمامك الى الأبد..."

هزرت رأسي ببرود: "لا... لا..." ووقفت أقفز من الباب وصممت ان أعرج ناحية المكتبات.

هز الشاب المنهمك بحزم المجلات رأسه: "متأسف يا أنستي".

وقال لي رجل آخر في المكتبة المجاورة: "راجعينا آخر الشهر" ولم يتراجع عن رأيه أمام شهادة البكلوريا.

من العبث ان أكمل الطواف. يخيل اليّ ان المحلات كلها تصفق ابوابها بوجهي وتقول لي: لسنا بحاجة الى خادمة.

هل تقول لي يد المرأة السمينة في الفندق: لسنا بحاجة الى خادمة؟

تملقت بالغلغلاف الاخضر المرمي من الباب وانهلث عليه امزقه:

ممن؟ من ابي؟ من مادلين؟ من مدير المدرسة؟ من الخنزير الوسخ؟

"اناشدك بأجمل ما تملكين، اناشدك بالدمعة الباسمة في عينيك، اناشدك بالطهر المتفجر من قلبك ان تسمح لي بمقابلة قصيرة معك لأختفي بعدها اذا اردت الى الأبد.

الشاب الثقيل الذي يلاحقك، هنري عيد

من أنا؟ هنري عيد؟ ما الطهر المتفجر والدمعة الباسمة؟

اخاف ان امد يدي الى الورقة المتذلة عند قدمي ويدفعني نبضي الهائج الى الهرب، الى البكاء، الى طرد الخيال البشع من أمامي. الى إزاحة الورقة تحت حذائي، يخيل الي ان الوجه الاسمر يتمرغ بحذائي لأرحمه.

من انا لأرحم؟، وبدأت اصرخ: من أنا. وامتألت الغرفة بصوتي وانهلث على الباب المفتوح: من أنا؟

تمنيت لو تتحول "من انا" الى حذاء، الى نعل وسخ لأقذف به المرأة المشدوهة في وسط الغرفة. من أنا؟

وبسرعة عرفت من انا وتذكرت: تشردي وضياعي. تذكرت: "سيتلذذ الرجال بمراك عند اقدامهم". تذكرت لسنا

بحاجة لخادمة. تذكرت: "كلبة". تذكرت: الغلاف الذي رماه والدي بين يدي... تذكرت... ولم اعد اقوى على

الوقوف فوقعت وتراخت عليّ غمامة سوداء.

ربتت اليد الزرقاء على كتفي: "العصبية ستقتلك يا حبيبتي"... فلذتني فكرة القتل وانا اعد الساعات الهاربة واتأمل مضي الوقت مع تحرك الأشعة المتسرية من النافذة. ماذا تهمني الحركة؟ بعد اسبوعين على الاكثر تطردني المرأة السمينة من غرفتها الننتنة فأبيع ثيابي ثم أبيع عمري كله تحت أقدام سيارة مجنونة. وماذا تساوي حياتي؟ ماذا تساوي هذه الرأس الملقاة على الوسادة؟ ماذا يساوي هذا الجسد الهزيل الغارق في الظلام؟

ارتجفت، فمن الزاوية يهجم عليّ شبح اسود اراه كبيراً كبيراً... احسه ضخماً ثقيلاً... ارتجفت وتكورت في الفراش، طمرت رأسي بالوسادة فانا بحاجة ليد ضخمة تحميني من الشبح الكبير.

وبغثة انتصب خيال هنري عيد قبالي. رأيتَه يمزق الشبح الكبير بأسنانه ويرديه قتيلاً. وشعرت بدفئه يسري في دمي...

لماذا لا اكلمه وارحمه؟

فكرة الرحمة تخلف صدى مزعجاً في اذني. فلماذا اكذب؟ انه الجوع انها الحاجة! انه الفجع الى الامتلاء، الى طرد الفراغ...

وفي الصباح خلف الفراغ في رأسي صداً خفيفاً فقامت ازحف من بؤرة النار في الفراش الى بلاط الغرفة...

امامي على البلاط ثلاثة قضبان زنبق ابيض في زهرية خضراء على حقيبيتي. اقتربت، ركعت عند الحقيبة امر بيدي على البياض الناصع. من أين الزنبق؟

لماذا تكّرمني صاحبة الفندق؟ لماذا تعطف عليّ وترحميني؟

حملتني السعادة لأقفز الى الباب أدقه، انادي، اصرخ ثم ارتمي بين ذراعيها الدافئتين واتمرغ على صدرها النابض.

آه كم أحب هذا الصدر! كم يلذني دفء هذه الذراع! كم تسعدني دموع فرحي!

لكن اصبعها الزرقاء ترفع عيني صوب الحقيبة لتدلني على ورقة خضراء صغيرة مطوية بإتقان تحت الزهرية:

"لا تتعجبي! الحب يفعل العجائب. اقبلي هديتي المتواضعة. اتمنى لك الشفاء.

هنري عيد"

وقعت فركضت اليّ المرأة تجرني الى السرير صارخة بغضب: ما هذا؟ اخاف ان أنظر في عينيها، اخاف ان تصفعي... ان تتبدد شفقتها فترمي بي كالحشرة الى الشارع. قبلت يديها "ارجوك اعذرني، تقتلني المفاجآت". فانطوت فوقي تتحسس جبهتي ثم انسحبت.

اجترت ذاكرتي: "لا تتعجبي. الحب يفعل العجائب. اقبلي هديتي. اتمنى لك الشفاء"...

فمضغت بمرارة: "اتمنى لك الشفاء"...

من قال له انني مريضة؟ أيرحميني هو اذاً؟ أيشفق عليّ؟ .

لا اريد ان يعرف انني مريضة، لا اريد ان يعرف ان في قلبي نقصاً! لا اريد ان يعرف انني اصاب بنوبات اغماء، انني فقيرة ومشردة، ومطرودة كدودة رخيصة...

وانصبت النار في اعصابي وقذفتني الرجفة عن السرير لأنقض واقذف الزهرية بقدمي وانهال على الزنابق العائمة فوق الماء.

ماذا فعلت؟

حططت عيني على ثلاث زنابق منبטحة على الارض وثلاثة سواقي ماء تتجه نحوي، وقطع زجاج مبعثر والرسالة الخضاء تتلملم مع الماء المتسرب اليها.

انني بحاجة لأن أهرب.

وخرجت أركض.

لم أجب على سؤال المرأة، ولم أجب الزنابق الثلاث المنبטحة على الارض، لم أطلب استرحام الرسالة الغارقة في الماء.

بدأت أركض. ارتيمت في الترام. قفزت منه في ساحة الدباس. قطعت حتى الغومون بالاس. ركضت الى بناية العازارية. عدت الى باب ادريس، توغلت في سوق الطويلة.

لم أوفق. تأملت الـ أ. ب. ث. اسرعت... تأملت ثوباً اصفر في واجهة اخرى. اسرعت. تأملت شاباً حالماً في الاوتوماتيك. واسرعت. وعندما شعرب بالتعب ارتيمت في الترام.

لماذا لا يسرع الترام مثلي؟ لماذا لا يركض؟ لماذا لا انزل منه وأجره؟

من باب الفندق صعقتني وجه هنري المعلق بشفتي المرأة السمينة المثرثرة فتوقفت: ماذا يفعل هنا؟ واندفعت اقذف الباب بحذائي وارتمي على الارض ثم اقف وادور متمسكة بالجدران: ماذا يفعل هنا؟

فتشت في الارض عن الماء، عن الرسالة، عن قطع الزجاج، عن الزنايق الثلاث... الارض نظيفة. قذفت الحقيبة. أين الرسالة؟ هزرت السرير وبدأت أخبط الكرسي: أين الزنايق؟ والزجاج؟ أين سواقي الماء؟ ماذا يفعل هنا هنري؟

رمى جسدي الغارق بالعرق، على الكرسي وبدأت أبكي.

لم أعود الفقر ولا التشرد، ولم أعود الذل... فلماذا طردني ابي وشردني الخنزير الوسخ؟ لماذا ألهبني الصرار الماجن؟ لماذا ضحك مني استاذ الادب العربي "بلم لا" لماذا لم انتحر؟ لقد اتيت الى بيروت!

صرخت بالوجه البائن من الباب: ماذا يفعل هنا هنري؟ فركضت المرأة تسد فمي بيدها العفنة ودفعنتني الى السرير خانقة الكلمات المنهمرة من فمي. ثم رفعت يدها وجرتني خارج الغرفة.

- أين هنري؟

- ذهب منذ دخولك.

واضافت: ندى كم عمرك؟

نبهني هدوء صوتها الى الاصغاء... كم عمري؟ واكملت:

- فتاة بمنزل عمرك تكون اقوى واصلب... انك ضعيفة وهذا عيب... حاولي ان تتحكمي بأعصابك، ان تقرضي شخصيتك على نفسك... حاولي...

لم اسمع البقية. كلمة "عمر" تتضخم وتتكاثر. كم عمري؟ ثمانية عشر عاماً. كيف صرفت هذا العمر؟ ماذا احمل منه؟ لا شيء... بلى احمل منه انني امرأة وانني ضعف وانني آله... مع هذا أحاول معاندة الله!

لماذا لا أعود الى ابي؟ عمري ثمانية عشر عاماً، فلماذا لا أعود أكمل ضياعي وتفاهتي وموتي؟

وسيرني فتور قابل فخرجت الى الباب اتأمل الشارع وخادم الفرن في الاسفل تحت طبق الخبز. من الأفضل؟ انا فتاة الثامنة عشرة، المشردة، ام هذا الطفل البائس؟

وعدت اسأل الوجه المربع بانكسار:

- ماذا كان يفعل هنري؟

فانفجرت دافقة... هنري، هنري، هنري! ساعة واللسان لا يتعب والصور تتدفق عن هنري ابن اخيها الميسور، عن هنري المهذب العاقل، هنري الكاتب في أحد البنوك، هنري الذي يدرس المحاماة على نفسه، حب هنري لي، فرحة والد هنري بهنري...

وسألتها:

- وكيف عرف انني اسكن عندك؟

فضحكت وادنت رأسها كالبقرة: الحب...

اضحكتها كلمة "حب" اشعرتها ان لها نفوذاً... وعادت تردد: "الحب... الحب..."

وعندما احسست بقرفي جمدت وقزيت صدرها العارم من وجهي تتنحج:

ندى، اريد القرار النهائي بسرعة.

فقرصني صوتها الواثق بنفسه. هل تنتظر مني ان اقول لها: نعم احب هنري؟ ورحت اصفر "قصة حب" لداليدا:

"قصتي قصة حب..."

"قصة حب أبدي مبتذل..."

أي قصة اشارك داليدا غناءها؟

البقعة السوداء على ثوبي الملوك، السرير الأسود الرخيص، الحقيبة القابعة تحت التراب تغني كلها قصتي:

قصتي قصة حب... حب حرية ابدية مبتذلة، حرية تحمل كل يوم كل جيد ورديء...

واكملت الاغنية من عندي:

قصتي قصة مغامرة ضد الرجال، مغامرة تبحث عن خنق الأطفال، والنساء. قصتي قصة الكره لالسنان والأظافر المدودة، قصة الكره للرجال والاطفال.

\*\*\*\*\*



السائق الرخو حذاء احمر. صاحب المحل حذاء ضيق. العتال حذاء رخيص. والدي كعب عال يخنق  
بارستقراطيته لكنه يرفع... والآن انا ذاهبة لمقابلة حذاء ضيق رفيع.

استقبلني الصوت الضخم بهدوء، ففكرت وانا اتأمل شعره الابيض الخفيف وصلعته الامامية الملساء ونظارتيه  
السميكتين: هل هذا الرجل حذاء ضيق رفيع؟ كلا انه ثوب يدفء ويحمي ويريح...

وغمرني شعور باللذة عندما رفع نظره اليّ ببسمة حنونة وهو يطوي الدفتر الطويل امامه ويأمر الخادم الصغير  
بأن يدير المروحة صوبي؟

لماذا لم يكن هذا الرجل والدي؟

- ابنة من انت؟

هل من المفروض ان أرتبط بأب؟ لقد اعتدت ان أكذب:

- والدي فريد خوري وهو موظف بسيط في المالية بطرابلس...

وأكمل حديثه كأنه يتوقع الا يعرف شيئاً عن والدي الموظف البسيط. من غير الموظفين البسطاء يتركون  
بناتهم في الأسواق يبحثن عن عمل؟ وأخيراً جمدت عيناه السوداوان البارقتان حناناً وأنا أقول له انني نجحت  
في البكلوريا ثم ضيق فتحة التعجب:

- كم عمرك اذا؟

- ثمانية عشر عاماً.

فربت على كتفي قائلاً:

- مدهشة... ابنتي من عمرك تقريباً ولم تصل بعد الى البريفه... انت نابغة!

نبوغ!

واتفقنا على ان يعطيني مئة ليرة في الشهر... مع غرفة خاصة في بيته!

لم أصدق. لم أصدق ان غرفة في بيت تاجر كبير ستحميني، وان سريراً فخماً سيحمل جسدي، وان هذا  
الصوت الحنون الهادئ سيصبح مألوفاً عندي اسمعه كل ساعة.

وراح الصوت يكمل بعث الاطمئنان فيّ شيئاً فشيئاً وهو يحدثني عن ابنته الوحيدة وابنه الوحيد ومنزله الصيفي  
في عاليه. المنزل في عاليه؟ أين اذاً سأسكن؟

ما كدت الفظ سؤالي حتى هوت على كتفي يد والصوت يسابقها الى أذني:

- ندى، ولو! كان عندي ابنة واحدة. والآن صار عندي ابنتان. لا تخافي. ابتداءً من غد ستذهبين معي كل ليلة الى عاليه وتعودين معي كل صباح... اطمئني، انك في حمى جورج خياط.

من هو جورج خيا لأرتمي بين يديه؟ الا يمكن ان يغدر بي ويغتصبي؟

واغمضت عيني في غرفتي، فرسا فوقي خيال طفلة وجورج خياط يخنق صوتي بكفه ويمزق ثيابي، ويكبل قدمي بتقل، ويهوي عليّ ليصنع مني امرأة!

وانتفضت عن السرير اشد ثوبي بجنون ساقي. بي رغبة ملحة تجن في داخلي لأهجم على شيء ما واخنقه، وانتقم من المرأة فيّ. من ثديي، من عضوي الانثوي.

لماذا لم يتسلّ الله بخلقي انساناً عجيباً؟

رميت هذه الفكرة المسلولة جانباً وبدأت أبكي...

هذا الجسد يعذبني. يعذبني ثدياي والثوب الذي ينسدل فوق عضوي الانثوي. فانا اكفر بهذا الجسد الهزيل الجامد امام المرأة... اكفر بهدف نفور الرمانتين من صدري، فانا اكراه ان يرضع فم منهما حليباً.

اكراه الاطفال!

\*\*\*\*\*



دائماً سيارة تقلني من رحلة لأخرى. المرسيدس طارت بي الى بيروت. والسيما السوداء تركض بي نحو عاليه. في المرسيدس صدمتني: "السياسة للرجال" وفي السيما خنقتني: "كنت أكره ان تكلمني المرأة عن غير الحب والجسد والجمال".

الحبل ذاته يلحق بي، يطوقني دون ان يقضي علي. وقال جورج:

- لا يعجبني صمتك - انتبه، المرأة لا تغرق كثيراً في التفكير.

فصرخت:

- بلى! المرأة تفكر مثل الرجل وتحل المشاكل بشكل أسرع!

- انت المثال اليس كذلك؟ وربت على كتفي.

مددت رجليّ برخاوة فلماذا أثور؟ لماذا اغرق في التفكير؟ ما الفرق بين حياتي وموتي؟ لا شيء. بإمكانني ان انتحر كل ساعة. لكني لا اريد ان يعرف والدي انني اخفقت خارج البيت. يجب ان اكمل تهوري حتى النهاية.

وفرفر قلبي اضطراباً عندما توقفت السيارة أمام الفيلا البيضاء. وعلى الباب الكبير طوقنتي سيدة بحنو وجرتني الى الصالون ووراءها تتبعني عينا صبي صغير كأنهما تسألانني: ماذا كنت تفعلين مع أبي؟

فضحكت له وقربته اداعبه مبطنه خاطراً مجرماً في خنقه. ثم وفقت مشدوهة اسلم على صبية حسناء.

- انها دولي ابنتي، قال جورج.

وجلسنا نتحدث بفتور.

آه الوحدة؟ تمزقني وانا ضائعة وسط الانظار المتكالبه عليّ ويمسكني انقباض قاتل رغم غرقي السريع مع دولي في حديث مدرسي عن صعوبة الرياضيات والعلوم وعن تفوقها في اللغة الفرنسية وجهلها لكتابة معظم الكلمات العربية...

عرفت من حديثها انها كأمي، الضعف نفسه، التعصب نفسه للصليب الماسي الذي يزني بين ثدييها، الروح الخفيفة الطائرة نفسها.

وعندما قادني جورج خياط الى الغرفة الخاصة بي، تركز فكري فجأة على هربي من مادلين. لماذا لا أهرب الآن او ألقى بنفسي من الشرفة؟

أتمنى لو اترك وحدي في الغرفة لأمر بيدي على طلاء جدرانها الزيتي، اشم راحة بلاطها الاخضر واتمدد على السرير الواطئ الناعم.

ما هذا الابيض المعتلي في الزاوية؟ مغلف كبير. لممته فانفتح عن ورقة زرقاء كبيرة: 50 ليرة، وعن اخرى صغيرة: "اقبلي تذكاري خادمك سلمى".

ماذا؟ خمسون ليرة، ومن الخادمة؟ والدني اعطاني المبلغ نفسه... والدي كالخادمة... لا، الخادمة أفضل، الخادمة أحب. ورفعت المغلف الى فمي اقبله فشددتني دولي.

- أتقبلين الدراهم؟

شعرت بخجل:

- لا أقبّل صاحبة الدراهم.

لم تفهم، ولم أحسن التعبير.

غصت ثلاث مرات بالطعام، هذه هي المرة الاولى التي أتناول فيها طعاماً مطبوخاً. المرة الاولى منذ شهر وجورج يحاول ان يرفع عيني الى الوجوه المشدودة الى وجهي.

لكنني لا استطيع ان اتغلب على انكماشني رغم اني اضحك دون معنى لزوزو الصبي الصغير، واهز رأسي موافقة على كلام دولي واشترك بكل كلمة، بكل ضحكة، بكل حركة.

آلة يحركني واجبي وذلي في بيت غريب سيفرض عليّ حمايته.

حماية؟

وصوت يزلزلني: "اقبلي تذكاري خادمك!"

كان لي خادمة وغرفة خاصة وأمر منفذ. اما الآن فانا آلة اعيش على اعصابي لأريح اللقمة واندي امعائي بكوب حساء بعد شهر من الجفاف، لأريح ظهري على فراش ناعم.

الأجل هذا تركت البيت وتهت؟

وقال جورج:

- ما عمر فريد؟

عمر والدي:

- يناهر الستين كما اعتقد.

واكمل: كم عمر أمك؟ هل انت البكر؟ كم أخاً لك؟ ما اسم اخوتك؟ ما عمر اختك الصغيرة؟ كم يقبض والدك؟ وتابع وأنا أحسب مع كل حركة انه يهم بلطمي. بسحبي من شعري ورمي خارجاً، بالصراخ بوجهي؟ كاذبة!

لماذا لا أفصح عن حقيقة أبي فأدنس شرفه وأطخ سمعته؟ أخاف، أخاف من كلمة كاذبة، من صفة، من ضياع السرير الناعم والغرفة الخاصة.

وعلى الوسادة تشاجرت في داخلي أحاسيس مرة، فبكيت ...

كلا، ان الوسادة الناعمة لا تريحني. ولا يسعدني السرير الوثير. ولا يبرد أعصابي النور الخافت والرائحة الهائلة في الغرفة. يخيل الي ان في السقف اقدماً ترقص وأيادي تصفق وافواهاً تتادي: غريبة، غريبة!

تخنقني المرارة، تشد، تشد، تشد وتلقيني خارج السرير نحو النافذة. وأمام النافذة عادت الحرارة تخنقني فلم استطع التحمل.

غرزت أظفري في صدري، في ثديي، في شعري ولم اقب على الوصول الى السرير قبل ان تهبط الغمامة السوداء على وجهي.

وفتحت عيني وثقل هائل في رأسي. أين أنا؟ وماذا يحيط بي؟ ضوء خافت هادئ وخزانة مربعة وسرير منخفض ومكتب صغير.

أنام على الأرض، جبتهتي جليد، ودمي جليد. وتذكرت الغمامة اللعينة فعدت الى السرير ودقت الساعة تعلن منتصف الليل.

في الصباح انساب الحديث هادئاً بيني وبين جورج بينما السيارة تتساق بالهدوء نفسه الى بيروت. وعاد يقول لي:

- لا أصدق. لا أصدق. ففتاة الثامنة عشرة لا تجيد التحدث الا عن السينما والازياء..

يحسبني كدولي اعتر بأنني "بلبل بالفرنسية"، وهي تقول: "على كل حال هذا هو الضروري لأن المسيحيين لا تتفهم الا لغة امهم فرنسا".

ورأيت فتاة عارية الظهر تتمخطر على الرصيف فقال جورج:

- ما رأيك بموضة هذا الصيف؟ هل تحبين انتداء الديكولتية الواسع هكذا؟

تعجب عندما قلت لا.

- انك تقتربين من المثالية في نظري...

تضحكني "المثالية" وتذكرني بقول معلم الادب العربي: مثالية المرأة ان تحرس أطفالها وتخدم زوجها وتربي  
امتها في قلوب اولادها. حتى استاذ الأدب العربي كان حيواناً لا يهتم الا بأن يكون للمرأة أطفال وزوج  
وواجبات.

لكن جورج يشاركه الرأي فقد قال لي في المحل وامرأة حبلى تمر:

- جميل ان تحلم الفتاة بأطفالها وهي بعد طفلة وتدبر مخطط حياتهم مع مخطط حياتها.

هذا رجل آخر يرى ان المرأة لا واجب عليها الا الانجاب.

وهل أحارب الشريعة أنا؟

هل أعاكس الله؟

وضربت باب السيارة، وكدت أمزق كدسة القماش، كدت أقتل المرأة الحبلى.

واذا لم أتزوج فماذا أفعل طوال عمري؟

\*\*\*\*\*



" فريد - اشكرك لأنك تكرمت عليّ بخمسين ليرة يوم طردتني... وإذا اعيدها اليك اذكرك ان باستطاعتي الحياة خارج بيتك".

ساعة وضعت هذه الرسالة في صندوق البريد تمنيت لو استطيع استرجاعها فأمسكت فتحة الصندوق أهزها، وادخلت يدي في الشق فعلقنت اصبعي. مصصت اصبعي المقشورة وسرت أخبط الرصيف.

سأشتري حذاء بكعب عال، أظهر فيه مرتفعة فلا اشعر بضعف امام رجل، سأمد يدي بجرأة الى محفظتي للمرة الاولى في بيروت وأقذف بوجه صاحب المحل عشرين ليرة.

تذكرت: سيتهافت علينا الرجال للتمتع بمراك عند أقدامهم... لو قبلت لكنت الآن عبدة أسجد عند اقدام الرجال لأدخل فيها الأحذية... الرجال احذية. الأحذية رجال... سأشتري رجلاً، سأشتري حذاء بكعب عال.

ادوس رجلاً بقدمي... وتتهت في الشارع، اجتزت اكثر من ممر. لم يعد أمامي سبيل الى الانفلات من هذه الحرية... ليتني حرة في البقاء هذه الليلة في الشوارع. لكن خيال جورج يصيح في وجهي: اسرعي والا طردتك... الحذاء تحت ابطي ثروة ضخمة... وعندما سألني جورج: بكم اشتريته، شعرت بلذة كلمة العشرين ليرة على لساني.

في طرابلس كان والدي يرغي ويزيد اذا اشتريت حذاء بهذا الثمن المرتفع. ليته الآن هنا لأمرغ وجهه بنعل الحذاء الجديد، لأدس في انفه الكعب العالي. لائحقه باللون الباهت، لأطرقه على رأسه بمقدمة الحذاء حتى يموت، حتى يموت.

هل أريد أن يموت؟

لا فرق، انا حبكة منحلة من سلسلة الناس، ولا أريد ان أنضم، لا أريد ان تطالني مثالية المرأة، لا أريد ان تتفحصني عينا رجل في الظلام، لا أريد ان تمتد أصابع شاب مكبوت الى ثديي، وظهري وعنقي. لا أريد ان اقبل، ان تُمص شفاتي وأحب في سرير، وتحولني ليلة بلهاء الى امرأة، الى آلة للنسل.

وقال جورج بصوته الضخم:

- ندى، لملمي الأقمشة، لقد حان وقت الانصراف.

أشعر بنير باهظ حين يأمرني جورج بهذه الحدة لكن لم انفذ الاوامر بسرعة؟

لم اقطع تفكيري مرة لأجل امر فرض عليّ غير اني اليوم مجبرة لاعيش دون خيالي، دون احلام خلوتي.

رتبت الاقمشة فوقعت. رتبتها، وقعت مرة ثانية. رتبتها، وقعت مرة ثالثة، وعندما كادت تهوي للمرة الرابعة قذفتها بقدمي، دستها بحذائي، بدأت أخبط المكتب الزجاجي واندفعت مجنونة من الباب الى الشارع الرحب.

قبل ان اقطع الرصيف المقابل وقفت:

أين أمضي؟

حدقت في حذائي، في الشارع، في البناية الشامخة الوقحة.

أين أمضي؟

استدرت فصدمتني قامة جورج تتأملني باشفاق وبده تشد على كتفي.

- ماذا حدث لك؟

أخاف يده الضخمة المحرشة، يده التي تتضخم وتكبر وتتورم، يده التي تزحف نحو صدري وكتفي، يده التي تكبل عظامي وتجرني الى الداخل الى كرسيه الخاص.

- ندى، ندى، لا تهدمي الصورة التي رسمتها لك في رأسي، ان هذه العصبية لفتاة ضعيفة...

وصرخت:

- لماذا قبلت ان اعمل عندك؟ لماذا انقذتني؟ لماذا صدقتني؟

وقطع كلامي التغيير الذي طرأ على وجهه.

ماذا قلت؟ لماذا صدقتني؟

طمرت وجهي بيدي وبدأت أبكي. حتام أظل ضائعة وأكذب؟

رفعت وجهي لأفرغ أمام جورج الحقيقة بكاملها، لأقول له ان والدي يطمرني بليراته لكني تراجعت...

لا اريد فانا لست ضعيفة.

ومسحت دموعي وانثنيت فوق القماش انفض عنه غبار حذائي وأطويه وأطوي معه صورة هنري وأبي.

وفي غرفة المراحيض في البيت تمنيت لو أرمي ابي وهنري في الجورة البيضاء بين الماء الذي يفأى بالوسخ والبول.

لماذا تجرني دولي بهذا الفيض من الحماسة الى غرفتها؟ لعلها تريد ان تكمل لي سرد مغامراتها مع الشاب الذي تحبه، تذهب معه سراً الى السينما، تقبله في الظلام فيمد يده الى ظهرها العاري الى، الى... ويحاول ان يصحبها الى غرفته الخاصة، لكنها تخاف والدها.

عصرت دولي يديها بين فخذيهما وهي ترتجف فرحاً ثم همست في اذني:

- رأيتك، رأيتك اليوم، آه... اتمنى لو اعيش طوال حياتي تحت وطأة قلبته... اليوم ذهبت معه في السيارة الى طريق منفرد، فرماني من شدة حبه على المقعد واضطجع فوقى... قبلني بنهم في وجهي، في اذني، في عنقي، وانقطع حمال ثوبي فعري صدري تحت يدي وقبلني فيه، في كتفي، شدني. ضغطني اليه، التصق صدري بصدرة، ارتفع ثوبي عن فخذي فتلملت اصابعه الى جسدي كله ثم عاد يجلسني على ركبتيه، يمددني بين ذراعيه، ثم يرميني على المقعد من جديد ويشدني بجنون الى صدره ليغرز يده في صدري ويغرف ملء شفثيه الدافنتين قبلاً وعضاً من فمي وثديي...

لم اعد اقوى على التحكم بنفسى والتحفيف من حدة النار المشتعلة في جسمي كله، تركتها واندفعت اصفق باب غرفتي ورائي، اتمدد على السرير اخلع عني الثوب والصدريه عن ثديي، ارفع ثوبي عن فخذي وانا أتخيل هنري عيد فوقى يحملني بين يديه، يمددني وينام عليّ، يقبلني، يعصرني، يمد يده الى صدري، يرفع بيده الثوب عني يمزق قميصي ويتأملني عارية، عارية، ينهش من عريي ما يريد، وأقوم من تحته امرأة.

رفعت حمالات الصدرية والثوب وشدت قميصي ورفعت أظافري أغرزها في خيال هنري، في عينيه، أبعد عني.

وظلت الرجفة تهزني وتحملني على العودة والتمدد والتعري والتخيل فهربت من نفسي، من الغرفة، هربت من وجه دولي.

وحين انتهت السهرة الطويلة وضمتني غرفتي مزقت ثيابي وملأت المرأة بجسدي العاري.

هل أنا جميلة؟

مررت بيدي على خصري الغائر كمغارة تحت عظامي وثديي المتوثبين وفخذيّ البضين. وعندما عادت اليّ الرغبة في تخيل نفسي بين أحضان هنري ارتميت في البيجاما واندست في السرير.

لم تتم الرجفة في جسدي، احسستني دون وعي اسحب الوسادة تحت رأسي، اعصرها على صدري، اعضها، انهشها، اغرز فيها اظافري، اسحقها برجلي، اسحقها بين ساقي، وأجن!

\*\*\*\*\*





هل انعدم الكره؟ وقال لي جورج:

هل باستطاعتك اعطاء درس خاص لزوجو في الحساب طوال هذا الشهر الاخير من العطلة؟

قلت بسرعة: "نعم، نعم".

واستسلمت لحياكة افكار جديدة: على الاقل سيزداد راتبي خمسين ليرة فماذا افعل بها؟ ماذا افعل بالمئة ليرة؟ ساقصد وأوفر ثمن اثاث بسيط وسيارة.

وفي الصباح كانت السيارة تهوي بنا الى بيروت، وحطم جورج الصمت الثقيل بقوله:

- اذاً اتفقنا على تعليم زوجو؟

- لم لا؟ طبعاً.

- الراتب... سأزيده مئة ليرة، ما رأيك؟

صفرت عيناى عجباً: مئة ليرة؟! يصبح راتبي مئتي ليرة! مئتي ليرة!

كدت أفقر اليه، كدت أذيه قبلاً، كدت أعصره حباً، لكنني عضضت اصبعي وابتسمت. المئتا ليرة تنتصبان أمامي مع كل خطوة. شفة جورج السفلى أحسبها مئتي ليرة، وصلعته مئتين. الباب الزجاجي مئتا ليرة، المروحة مئتا ليرة، مئتا ليرة!

بعد الظهر قال جورج:

- اليس عندك رفيقات في بيروت؟

كذب عليه سأمي وضجري:

- بلى.

وبعد قليل كنت في الشارع حرة في طريقي الى...

الى أين؟

هل صحيح ان عندي رفيقة أرغب زيارتها؟...

كاذبة!... انا كاذبة!... لكنني لست ضائعة، لم أبق ضائعة. أمامي خيال المئتي ليرة والحافلة الكهربائية المقبلة تسير امامي خيال الفندق الرطب.

تلذذت وانا اتمسك بنافذة الترام واتمايل مع القامات الطويلة المحيطة بي.

لم يطأطني الخجل امام الشاب الذي تنازل لي عن مكانه. من واجبه ان يتنازل لانني كبيرة، انام على سرير وثير، جدران غرفتي مطلية بالاخضر، راتبي سيصبح منئي ليرة، وسأصبح صاحبة بيت خاص وسيارة، لم ارم نظري الى الخارج، لم ارتبك في جلستي، لم افكر بهدف حملقة العيون بي... بل تحديث النظرات وتأملت كل من في الداخل، واصغيت بجرأة الى ثرثرة الشبان فوق رأسي. فانا أشعر انني قوية، حرة، اعيش من اجل هدف.

لم اسرع في رمي العشرة قروش في يد قاطع التذاكر، لم اخف ارتجابه قربي. انتظرت ان يطلبها هو مني. ان يمد لي يده، ان يتحول امامي الى كلب جائع، امامي انا، انا المرأة، الكيان.

ولقحني درج الفندق بشعور غريب. فقرعت الباب بحماسة، خبطت عليه حركت قدمي بهيجان. اريد ان اضج، ان اخلق حركة قوية لانني كيان...

عدت أضرب الباب والارض بحذائي.

الست خائفة؟

شعور غريب يحملني الى فوق الى فوق الى السماء، الى الكعب العالي، الى سطوح الابنية، الى رؤية الناس اقزماً تحت، فانا كيان.

وبين يدي المرأة السمينة انا كيان...

لم ارتم على صدرها فعنف بل قبلتها بنهم وفي عينيها لمحت الف سؤال.

- لا، لا اصدق! لا اصدق يا ندى ان صحتك تحسنت هكذا؟

ونطت قربي تنزه يدها على وجهي وعنقي وشعري...

- ندى، تغيرت عيناك!

وركضت، أحضرت لي كوب ليمونادا، وعادت تركض، وأحضرت صحن عنب. ومن جديد جلست تكاد تبتلعني.

ماذا تغير في عيني؟

تذكرت القوة والثقة، والكيان، فاحسست ان عيني ترغبان ان تتسعا، ان تريا العالم كله دفعة واحدة.

رفعت صوتي وأنا أتكلم، رفعت ضحكتي فانا لم اعد أضعف أمام ذكر هنري عيد ولا أثور امام سخافة المرأة السمينية وهي تسأل بجد وقلق:

- الا تفكرين في الزواج؟

لا أحس الا برغبة للضحك، لرفع صوتي، لنشر قوتي في الجو الذي شهد أتعس أيامي وأمرها.

وعاد صوت المرأة يطن:

- هنري لا يزال ينتظر عودتك الى رشك. قال لي انه ذهب ليراك في المحل لكنك تهربت. حرام، انه مخلص... فكري قليلاً... لن تجدي شاباً مثله يحبك هكذا. عديه على الأقل وهو مستعد لانتظارك.

ولم أثر، فقد أحسست ان طوقاً بدأ ينحزم حول عنقي. شعرت بأظافر حب هنري الكبير تحنقني، ترمي حجاباً على عيني، تكبلني في الزاوية المظلمة.

- لماذا أعده؟ أنا لن اتزوج. هكذا قلت وضحكت وانا اراها تهز رأسها امتعاضاً ثم تكمل:

- كم تقبضين:

- مئتين وخمسين.

وانشف فمها عن إعجاب:

- 250 ليرة؟ انها راتب رجل!

كذبة جديدة... كيف اعتدت الكذب دون تبكيت ضمير، دون ندم؟...

صحيح، المئتان والخمسون ليرة راتب رجل فالمرأة تعمل دائماً بأجر اقل لأنها أضعف ووقتها رخيص، لأن فراغها بلا هدف. سأعلم المرأة السمينية ان المئتين والخمسين ليرة راتب امرأة.

الساعة لا تزال الخامسة والربع وباستطاعتي ان اشرد اكثر من ساعة.

وفي سوق الطويلة نزلت سيدة ارستقراطية من سيارة سوداء فلم اهرب منها، لم اخف الاقتراب. مددت انفي مثلها الى واجهة المحل، تحدّيت الالوان الزاهية، ودخلت مثلها أساوم واستعرض.

سأصبح مثلها بعد عامين فيماذا تفوقني؟ انا أفوقها بتحرر يدي من المحبس الماسي.

بليرتين اشتريت منديلاً رائعاً لفتهه بورقة صغيرة وطويته في يدي... يدي تحمل ثمرة عرقي، بهذا المنديل استطيع ان اشترى تفوقني على "دولي"، فأقدمه لها لتشعر انني غنية، لتخافني، لتحترمني.

غير انها لم تهتز عندما رميته اليها فقد صفعنتي ببسمة صفراء وانصرفت. لقد تغيرت نظرتها لي، اصبحت حائرة.

وفي غرفتها أمسكت بمجلة فرنسية وطمرت راسها دون ان تهتم لتصلبي قريبا، وسألتني قلقة:

- كم عمرك؟ انت من عمري؟

ووقفت قربي تمد قامتها. أنا أطول منها، أنا أقوى، انا متعلقة اكثر منها، وسأصبح أغنى بعد شهر.

وحدجنتي بنظرة قاسية حسودة ثم أخذت تدمدم لحناً فرنسياً.

هل كرهت دولي اقامتي معها؟ هل تغار مني؟ هل تخاف على والدها من جمالي الهادئ؟ هل أحست أمس بكرهي لها؟ على عرفت سر نوبتي العصبية؟

والواقع انني أخافها، أخاف غضبها، أخاف ان تطردني من البيت؟

فالى أين؟ أين أمضي؟

في المساء أفلقتني صوت دولي المللع في غرفتها وصراخ جورج ووشوشات الزوجة. لكن لم أجسر ان أخرج بل استقيت من شق باب غرفتي صوت دولي المتقطع الباكي:

- لا، لا اريدها، قلت لا اريدها. ليس صحيح.

انا حرة... اعد لي استاذ السنة الماضية.

من هذه التي لا تريدها دولي؟ هل هي أنا؟

للمرة الأولى يعذبني شيء في غيري. فخيال الدمع في عيني دولي يؤرقني. انا أعذبها وأولمها؟ استدرت في الغرفة افتش عن حل في النافذة، في السقف، في البلاط، في السرير. هل أترك هذا البيت وأذهب؟ ولكن الى أين؟

ضغطت رأسي أعصر دماغي الجاف، أعصره ساعة، ساعتين، ليلة، نهاراً. وفي المساء التالي حاولت ان أتقرب منها... حبكت لها فكاها حلوة، رويت أمامها بعض ذكرياتي، لكن الدمعة في عينيها ظلت محدقة بي والاصفرار في جبهتها بقي مكانه.

- دولي، لماذا انت كئيبة؟

لم تجب. وأغرقت رأسها في المجلة الفرنسية وهزت كتفها ثم حركت رأسها حركته الى فوق، نحوي.

أخاف منها، هذه الأفعى! أخاف ان تنفث في وجهي سماً يدفعني الى الهرب.

ثبتت نظرها على خصري النحيل، على عنقي الطويل، على صدري، على ثوبي... وعادت تحفر جوراً في خصري وهي تسألني:

- كم عمرك؟ كيف تقويت بالرياضيات؟ ما اسم والدتك؟

انني مجبرة على الرد ففي عنقي طوق.

لماذا أخافها؟

شعور قاتل بالغبية يحوم عليّ، فانا، أجل، غريبة! وعلا صوتها خشناً:

- ندى، لماذا انت ذكية؟

عندما حاولت ان اجيبها ببسمة لطيفة افزعني الفجور المنصب عليّ من هذه النار، من الجبهة الصفراء، من الاسنان المرتعدة. وشعرت بخوف يرجعني الى الورا، الى الباب، فالحائط، الى الهرب من اظافرها المطبقة بوحشية على المجلة.

عاد صوتها يدوي:

لا تكذبي، انت كبيرة، انت كبيرة، عمرك اكثر من عشرين عاماً، انت كبيرة...

وحين انهارت على الاريقة لم استطع الا ان اقترب منها، ففي الغرفة يخنقني وهم قاتل ويشير باصبعه قائلاً: هذه جريمتك.

ماذا افعل؟

لم اجد الجواب طوال اسبوع...

الهزال في عيني دولي يعذبني، عيناها تقولان لي: اخرجي من البيت. شفتها العليا تصرخ: اغربي من أمامي، جبينها المسمم اصفر ينفجر: اذهبي، اذهبي.

لكن أين أمضي؟

وكاد جورج يصعق حين بادرتة بالقول:

- اريد ان أقيم وحدي.

- هزني بقساوة، حملك فيّ، اصطكت أسنانه وفي وجهه رأيت خيال كف يريد ان يصفعني، ان يغلق فمي، ان يقول لي: مستحيل!

وقالها. قال: "مستحيل" وجرفت الكلمة كومة من الحنان والشفقة والخوف والفراغ، رأيتها تتدفق من على الرجفات المتخلفة على الشفة السفلى.

شدتني كفه الى الكرسي.

- ندى لا تفكري في هذا بعد الآن. مستحيل... لن نستطيع العيش بدونك.

- وتحول صوته الى أنه، الى غصة، الى دمعة لمعت في عينيه فكدت انهار. للمرة الاولى اشعر انني لا استطيع العيش دون هذا الرجل. ووددت لو اركع، انحني واقبل رأسه، اضمه واقول له: لن ارحل...

لكن هذه الأزمة من يحلّها لي؟

الاصفرار في وجه دولي يخيم عليّ كل ليلة ويقول لي انا ضحيتك. واللهفة في عيني جورج تقول لي: ستهدمين سعادتنا اذا رحلت.

افكاري ضائعة وجهودي ضائعة، وقراري في أن أتقرب من دولي يضيع ويضيع ففي عينيها ابداً فجور ورغبة جامحة لسحقي وخفقي. لكن لم الخنوع؟ لماذا اترك هذه الفاجرة تسحقتني وتعذبني؟

خرجت بخاطرة جديدة، بهدف جديد لسحق دولي، لقهرها، لتعذيبها وبدأت اندمج في حياة العائلة.

وصار جورج يغرقني باهتمامه والزوجة تستشيرني في كل ما تعمل والاصدقاء يستمعون الى آرائي بإعجاب وزوزو يحبني بل يعبدي وانا أعلمه كل ليلة.

دولي وحدها ظلت تتعذب، تلتهب غيرة ودموعاً كل ليلة على الوسادة، تلتهب عناداً في وجه امها، تلتهب غضباً فتمزق وتبعثر وتصرخ كوحش، كذئب يريد ان يفترس.

يفرحني هذا الضعف فأهزأ به وانا أدلل زوزو أمامها وأربت على كتف أمها واساعد جورج في ربط عقدة العنق كل صباح لتتعذب! ثم تفرغ عذابها فسقاً في احضان عشيقها الذي يعب من جسدها طعاماً لشهوته ثم يلفظها وبمضي.

دولي امرأة، اقنوم ضعيف من السهل ان يغتصبها اي رجل ليصنع من بطنها كيساً منفوخاً.

يجب ان تتعذب دولي، يجب ان تتعذب كل امرأة تحب، تضاجع وتحبل!



كلا، فانا لا أشعر أمامه برغبة لأن أتعرى، لن يرتفع ثوبي وأنام تحت حرارة قبلاته. فقط التذ بأن انطوي قرب صدره العريض، احتك به. وأشعر بدفئه، بأن تربض يدي تحت اصابعه الضخمة، وأتطاول كل صباح لأساعده في عقد ربطة العنق...

من هو هذا الرجل بالنسبة اليّ؟

تساءلت وانا انتقل قربه في المحل، تساءلت وانا اتناول من يده الاجاصة عند الظهر، تساءلت وانا افتح له باب السيارة عند المساء ولم استطع ان اهدئ لاجابة السؤال...

ولكي انسى، فكرت: لماذا تعاودني دائماً صورة صاحبة الفندق؟ وحاولت ان اتذكر خطوطها العريضة: سمنة، اعتدال في القامة، شعر اسود يخالطه بياض ثم ماذا؟ ولماذا لا ازورها؟

بعد ظهر الاحد صممت ان ازورها.

اشتقت ضجيج الترام واشتاق ان اتذكر كل شيء من ايامي الاولى في بيروت: قاطع التذاكر، المقاعد الخشبية، صور الدعايات على الزجاج، والسيارات الهاربة وراء النافذة العريضة...

عندما قدم لي شاب طويل مكانه ضحكت واسترجعت صورة هنري عيد. كان هنري يضعفني، يستمد مني لذة فانصاع انا تحت رحمة النار في عينيه. اما الآن فأني رجل يجرؤ على النظر اليّ؟ اتحدى هنري عيد نفسه ان يحدث أية هزة في قلبي.

ضجيج الترام احسه ولا ادركه. نوافذ الترام تذكرني بشيء من حياتي لا استطيع تحديده. لماذا ركبت الترام؟ لماذا حضرت امس فيلماً سينمائياً؟ لا ادري... شيء ما يدفعني الى التصرف دون تفكير.

درجات السلم: واحدة، اثنتان، ثلاث، خمس، سبع...

لماذا أسير بتراخ ولا يلهبني الشوق لأركض، لأنتهم الدرجات، لأخبط على الباب واقابل المرأة الوحيدة التي أوتني في محنتي؟

وتهاكت على صدرها العريض... كان بيننا تحديق ونظرات اعجاب وشفاه فاغرة، ثم شيء كالألفة شدنا من جديد لنقبل بعضنا بعضاً، لنتعانق واسير معها الى الاريقة الواسعة في صدر الغرفة.

واندفعت نحو غرفتي.

الباب تغيّر لونه. كيف كان؟ مررت بيدي عليه: انه ناعم هادئ بلونه الاصفر، الحديث الشكل. يجب ان اعرف كيف كان لونه. اخضر؟ ازرق؟ ضحكت المرأة السمينة وهي تربت على كفتي:

- تغيير الحال يا ندى، ربحنا ورقة يانصيب...

كدت أمزق فمها المهترئ. ما همي؟ اريد ان اعرف كيف كان لون الباب!

- غيرت كل شيء، صرت اقبض ثلاث ليرات كل يوم عن مثل هذه الغرفة، غيرت الابواب. هذا كان عتيقاً اسود. ابدلته.

هذا كان عتيقاً اسود!

الان تذكرت الباب. كان مجرّحاً قديماً. كان فيه ثقب، كان مشققاً... وادرت المفتاح اهجم الى الداخل فصدتني الغرفة الى الورا.

- ما هذا؟ اين غرفتي.

وضحكت مرة ثانية:

- رأيت الفرق؟ هذه هي غرفتك، المال يفعل العجائب.

انقبض قلبي ونفرت دمعة ساخنة من عيني. وحدقت في الدار: انه ازرق، قرّبت فمي منه، قرّبت انفي. حدقت بالسرير العريض. أين سريري الحديدي؟ فتشتت عن الطاقة القديمة العالية، لقد تحوّلت الى نافذة زجاجية عريضة يغطيها ستار حريري ازرق. وفي الغرفة طاولة حديثة عليها زهرية وثلاث زنابق.

وعادت الى ذهني رسالة هنري:

"لا تتعجبي... الحب يفعل العجائب. اقبلي هديتي. اتمنى لك الشفاء."

يوم فتحت عيني في هذه الغرفة على الزنابق الثلاث حطمت الزهرية وتركت القضبان تسبح فوق بحر ماء... لماذا لا احطم هذه الزهرية الخضراء وأسحق الزنابق؟ هممت ان أهجم لكنني تذكرت فجأة ان الغرفة لم تعد لي وانني لا املك شيئاً فيها.

اقتربت. هنا كان سريري. وفوق السرير حفرت مرة اسمي. فأين هو؟ طمره اللون الأزرق.

لماذا أتيت الى هذا الفندق؟ لماذا لا اذهب اليوم الى السينما؟ فغرفتي تغيرت. السقف الذي حمى عيني تغيير. السرير الذي تحمّل جنوني تغيير. حتى اللحاف، حتى الوسادة التي مزقتها الف مرة... فماذا يهمني بعد في هذا الفندق؟

حملت محفظتي وانسحبت.

صرت اكره غرفتي في البيت، فلم يعد من فرق بينها وبين غرف الفندق... وصرت أرى نقصاً في هذا الاثاث...

ماذا ينقص هذه الغرفة؟

تسمرت قرب المكتب، اتكأت على عمود المكتبة الزجاجية، تمددت على السرير، وقفت عند ستار النافذة اشم رائحته وتحسست الخزنة للماعة.

ماذا ينقص هذه الغرفة؟

وعرفت. فهبطت الى الشارع مسرعة اشترى زهرية وثلاث زنابق.

هل اكتملت الغرفة الان؟

"لا تتعجبي. الحب يفعل العجائب. اقبلي هديتي. اتمنى لك الشفاء. هنري عيد".

من هذا الرجل بالنسبة الي؟ ما الزنابق بالنسبة الي. ما هي هذه اليد التي تخنقني؟

أنزلت الزهرية الى الأرض، قذفتها بقوتي ثم جثوت قرب الزنابق ألوكها. أغرقها في مجاري الماء الزاحفة نحوي.

وقال جورج:

- ندى، انت هنا؟ متى عدت؟

فركضت ارتمي على صدره.

من هو هذا الرجل بالنسبة الي؟

غمرتني السعادة وانا اجلس قربه في السيارة اجرب القيادة. احسست انني قطعة منه وتمنيت مدفوعة برغبة شديدة، ان اقترب منه اكثر فاكثر واشده الي، انوب في صدره، اخنقي داخل سترته، اشم رائحة عرقه، والاعب الشعر الاسود في صدره.

وانصببت عيناى على شفثيه.

هل في هذا اللحم الجاف المزرق ما يغيرني؟ هل اشعر بشهوة تقبيله؟.

وامعنت تفرساً في فم جورج، في وجهه وعنقه واذنه فلم أثر، لم تتحرك حرارتي. انه ليس رجلاً بالنسبة الي.



وتراجعت وارتيمت على السرير فانتصب فوقى خيالُ وجهه، خيال هنري يمد يده الى صدري، الى خصري وساقى، يحملني بيده عارية، ويشدني الى صدره، يجلسني في حضنه ويمددي، يأكلني بعينيه، ثم يعصني، يمتص جسدي، هذا الجسد الممتلئ الناضج.

الهبنتي الشهوة فأمسكت الوسادة مرة أخرى اعضها، اعضها، وأعصرها، ثم قفزت الى المرأة.

هل يقنعني، هذا الجسد؟

هل في هذا الجسد ما يغري ويثير؟

وتراجعت انهار على السرير وينهار فوقى خيال هنري، ينام فوقى، ويعصني يقبلني، يلتهمني، يعصني، يرفعني بيديه، ويتأمل الجسد السهل.

انتصبت! جحظت عيناى امام خيال جسدي العاهر في المرأة، فمدت يدي الى خيال أمامي ألحق به، أحاول ان اقبض على عنقه، ان اخنقه وافقاً عينيه.

فالى الجحيم يا خيال هنري...

لففت عريى بثوبى ومزقت ستار النافذة وانا ارفعه وارتيمت على السرير أبكي.

ما الذي دفعني الى التعري؟ شيء كضجيج الترام احسه ولا ادركه.

ووقفت قرب النافذة افتش عن شيء احسه ولا ادركه. وقفت قرب السرير ثم قرب المكعب. اود او احطم المرأة لأنها تذكرني بجسدي الرخيص الذي لن يكون رخيصاً ابداً وتذكرني بهنري الخيال الوسخ الذي يتعلق بجسدي ويلتهمه. تذكرني بالرجفة التي حقنتني بها دولي وهي تسرد لي مغامراتها، تذكرني بضعفي، بجسدي الذي كوّن ليؤدي وظيفة النسل.

لكنني لن أؤدي وظيفة النسل. انني اكره هذا الجسد، اشعر نحوه باحتقار هائل وبغض جارف. كلا! بل احبه، احبه. احبه لأنه سيبقى سليماً وحرّاً، لي، ولن يتعرض بعد الآن ليضاجع خيال ذكر!

\*\*\*\*\*



فككت يدي عن ثديي وهربت من المرأة عندما أثناني صوت جورج وهو يدعوني لأرافقه الى السينما.

الحت عليّ الزوجة لأذهب معه غير اني ترددت. كيف أقبل دعوته دون ان أعرف من هو هذا الرجل بالنسبة اليّ...  
اليّ...

قربه في السيارة دغدغتي لذة، وعندما دعاني لأقود بنفسي اغتتمتها فرصة:

- ما رأيك في ان اشترى سيارة ما دمت أحسن القيادة؟

فلاك وجهي ملياً ثم ابتسم ولم يجب.

وتعلق قلبي بالجواب، متى يفتح فمه؟ متى يصفعني: لا؟ متى يسعدني: اوافق؟

ولم يجب، فأعدت السؤال. وعاد يبتسم أكثر من الأول، وربّت بكفه على كتفي ضاحكاً:

- بعد اسبوع افكر في الأمر...

بعد أسبوع... تخلص ليق! لكن من يقيدني؟ يجب ان اشترى سيارة واتحدى مهلة الاسبوع واتحدى كفه العريضة التي ربتت على كتفي.

وفي السينما لم ار شيئاً. فصورة السيارة السوداء تملأ الشاشة امامي... أراني امسك بالمقود واديره بسرعة وجنون.

ما ارحب هذا اللحم!

متى أجلس وحدي في سيارة سوداء أديرها، اشعر بثقل مسؤوليتها بين يدي، أحس بتحولي الى كتلة من الانتباه... متى املك؟

مسألة الامتلاك وهم ضخم اعيشه. فماذا املك؟

ثوباً؟ حزاماً جدياً؟. غرفة؟. وحتى الغرفة يقلقني على مصيرها النور الاحمر المشع فيها.

ارتميت من السيارة. من وضع يده على ثروتي الوحيدة؟

صفعت عيني قامة الزوجة تدور بزوزو في غرفتي وتدمدم له لحناً شعبياً. قلقت فقالت لي:

- حتى هذه الساعة لم يغمض له جفن. زوزو يريد ان ينام معك.

لماذا يحبني زوزو؟

اقتربت منه فاذا به يقفز الى صدري ويشد أصابعه لتتعمشق بعنقي وتظل تشد حتى وانا اغلق الباب وراء امه ووالده حتى وانا افك سحاب الثوب عني واصب البيجاما على جسمي حتى وانا اعتلي كرسياً لأحكم اغلاق ستار النافذة، حتى وانا امدده في السرير.

ان هذه هي المرة الاولى التي يشاركني فيها الفراش شخص آخر.

واحسستني مكبله ومصلوبة على الحائط.

كالفشعريرة سرى دفء في جسدي عندما لامست قدم زوزو رجليّ ولم اشعر الا وخيال ضخم ينبطح فوقي:

كما انام الآن مع زوزو تتام المرأة قرب الرجل غير اني في هذا الوضع امثل دور الرجل بينما يمثل زوزو بانطوائه في حضني دور المرأة.

لو كان زوزو رجلاً بقربي فكيف كنت أنام؟

هبطت بجسدي الى اسفل، انزلت رأسي عن الوسادة حتى ساوى مستوى صدره فالصقته به. ثم كوّرت جسدي ورفعت يد زوزو فوق كتفي.

هكذا تتام المرأة قرب الرجل، تلتصق بصدرة، تلهث فيه، تكوّر جسدها قربه فيضمها بيد ويحيط جسدها بجسمه ثم يرخي شفثيه قرب رأسها وينام.

أه كم ارتجف! يمضغني الخيال الضخم، يوجعني، يشعرنى بفراغ... وامتدت يدي الى جسد زوزو تشده، وانشبت اظفاري بالوسادة، باللحاف، وبصدري، لماذا لا أتعري؟ لماذا لا امزق عن جسدي البيجاما التي تخفي كنوزه؟

وقرّبت شفثي من شفثي زوزو فاصطدمت بجليد. دولي قالب لي ان شفثي الرجل لاهبتان.

لو كان هنري عيد قربي الان لطواني في صدره، لخنقني بنار قلبه، مزق البيجاما عن جسدي ومددني عارية، لعرفني كيف تكون شفة الرجل محرقة.

لماذا أنام تحت الوسادة؟

ويلي! كم انا وسخة وسخيفة! افكر في التعري أمام هنري والتمدد قرب رجل... انني خنزيرة! ولكن هل على اسناني خيوط صفراء؟ هل تتام تحت أظفاري كوم القدارة؟

كلا لن اصبح امرأة، صرخت، لن أصبح امرأة!

وشددت طوق البيجاما على عنقي وادرت ظهري لزوزو كي أنام.

ثم ادريت وجهي تأملت وجه زوزو الاحمر وانفه المرتفع الصغير. تأملت عنقه المرتفع مع اللهاث. شعرت... شعرت... لا ادري. وانحنيت عليه لاقبله واحضنه.

هل أحب زوزو؟ انه طفل وانا اكره الاطفال. هل صحيح انني اكره الاطفال؟

دقت الساعة السادسة صباحاً وانا اتساءل: هل صحيح انني اكره الاطفال؟

وعند باب المحل اجبرتني امرأة حبلى على الاقتناع بأنني لا احب الاطفال. شعرت بقرف شديد من بطنها المرتفع ومن طفلة صغيرة وسخة تجرها وراءها وأحسست بقيء في امعائي فعضضت على شفتي ودخلت.

وقال لي جورج:

ممّ تتأففين؟

مسكين هذا الرجل. فهو لا يعلم انه على قيد شعرة من حذائي لأنه سبب انتفاخ بطن امرأة.

لقد كان كان في شبابه مائعاً واليوم هو رصين اما أبي فلا يزال شاب الغريزة يحرم امي ساعة يشاء ويهجرها ليالي عديدة يقضيها هنا في بيروت بين أحضان غانية فاجرة يحمل رسمها في جيبه.

ابي عاهر ومجرم، وحش، انه بلا قلب. انه حذاء جبار وقذر يخنق امي ويستعبدها.

مسكينة! هل اكرهها؟ بل اعطف عليها لأنها ضحية بريئة. فماذا باستطاعتها ان تفعل؟ لو لم تتزوج لكان عليها ان تذيب امها - حتى امها الوحيد مثلي - تحت تأثير رئيسها. كان عليها ان تتحمل ثقل خيال رجل كهنري يلاحقها في الترام، وتكون انساناً غريباً. لقد تزوجت وأعطت. أعطت ابي جسدها العاري في اول ليلة زواج فحملها بين يديه واشبها قبلاً ثم مددها واخذ منها كل شيء - كل شيء - ورمى فيها بذرة الطفل، بذرتي انا - ان المضطجة الآن على الاريقة.

لف زوزو يده على رقبتني قبل ان يصرخ "ماما" فارتجفت. مستحيل. من هذا الذي ينام قربي؟ هل انا حبلى؟

تحسّست بطني، تأملت السرير.

ولفني خيال دم واحسست انني اشم رائحة دم والمس الدم واغرق في الدم ويحولني الدم الى امرأة، الى عارية، على عضو انثوي فيه بذرة طفل!

صرخت كلا! واطبقت فم زوزو الصارخ خوفاً من جنوني: "يا ماما، يا ماما".

فككت اصابعه عن عنقي فانا لست اماً ولن اصبح، وان يرمي رجل في جسدي بذرة طفل.

\*\*\*\*\*



- انا ذاهبة لشغل وسأعود في السادسة.

وسرت. لم أشعر الا وانا تائهة عند باب ادريس... والتزام يملأني ضجيجاً.

أين امضي؟

قفزت عند الجامعة الاميركية... هنا مدرسة فلماذا لا أدخل؟

واجهني بواب نحيل:

- ماذا تريد الآنسة؟

- لا شيء.

- هنا مدرسة، ممنوع الدخول للتائهين.

اطبقت يدي على رغبة في الصفع وسرت... يجب ان اضيع، ان اعرف الى أين أمضي.

امسكت بالتلفون في محل خضار: يجب ان يعرف جورج انني تائهة، انني ضائعة، وانني أفتش عن عمل!

- الو، انا ندى، انني هنا في رأس بيروت. سأعود في السادسة.

رميت السماعة، رميت في وجه صاحب المحل خمسة عشر قرشاً، وقفزت الى الترام، ونزلت في باب ادريس، وتتهت في سوق الطويلة، وتتهت في المحلات، وتتهت وراء سيمكا سوداء وبيضاء مرت بي ولحقت بها حتى شارع طرابلس. وقفت، تأملت، مسحت الغبار عنها. قربت انفي اشم رائحتها فدوت ضحكة قربي.

قالت لي السيدة الشقراء التي كانت تقود؟

- ماذا؟ هل سرقتها لك؟

قذفتها بكلمة بذينة ومشيت.

عند الريفولي امسكت بعمود الكهرباء أشده وأصغعه. اريد ان أعرف أين أمضي! ما معنى هذا التشرذم؟ فاما أن أعود الى المحل او أفتش عن مصيري...

آه كم أرغب أن أتحدى الله، ان أتحدى ضحكة جورج العريضة التي يقابلني بها في المحل وهو ينزه يده على صلعته اللامعة.

لكن الصوت الفرح هدّ رغبتني؟

- ندى، اعرف انك تفكرين في شراء سيارة ولكن من رأيي الا تشتريها جديدة لأنك لا تجيدين القيادة كما ينبغي. فما رأيك في ان تأخذي سيارتي واشتري انا واحدة جديدة؟

لم استطع ان أنتظر لأقول: "وافق اوافق" غير اني غصصت بها وأحسست ان يداً تخنقني وتمنع عني الهواء. وريت جورج على كفتي وانحنى يقبلني:

مبروك... وملأت الجو مبروك، العالم كله يصرخ مبروك... الناس في الشوارع يصفقون لي: مبروك. الحرارة في الجو تقول: مبروك!

املك سيارة ادفع من ثمنها مئة ليرة كل شهر وعلى سنتين، املك سيمكا سوداء املك حلاًماً طالما راودني. املك حصمة افقأها في عين الخنزير الوسخ والذئب الجائع والصرار الماجن ووادي الحذاء العالي الكعب وامي الكلبة الضعيفة وصاحبة الفندق السمينة وهنري عيد ودولي.

وراء المقود حاولت ان اضع خطة لمسيري وفكرت، ولم أشعر الا وشيء يدفعني الى اعلان كياني.

وأعلنت هذا الكيان نهار الاحد وانا أطبق باب السيمكا وابتلع درجات الفندق. اعلنته وانا اعانق المرأة السمينة وأحشر في وجهها مفاتيح السيارة. اعلنته وانا اطلق لزموري العنان في الشارع العريض؟ واعلنته وانا اتجه نحو منزل مادلين حجار.

وفي منزل مادلين حلق في الشاب الطويل وخصتني زوجة اخيها الفرنسية بلفظة اعجاب، وحواني الوالد بأسئلته الفضولية.

تمدد كياني وانتفخ...

ففي هذا البيت سُحقت كرامتي مرة واليوم يُعوّض على الكرامة والخجل المر... اليوم يرفعني الى درجة "انت عصامية"، قالها لي والد مادلين، والى مرتبة "مثالية" رماها اعجاباً الشاب الطويل في اذن الزوجة.

وحين حاولت مادلين ان تقنعني بتناول العشاء عندها كدت انقلب على ظهري ضحكاً. ففي لهجة مادلين شيء من التذلل والاسترحام والضعف ويوم مجيئي الى بيروت كان في لهجتها قوة وكبرياء ورحمة. مادلين كانت كيانياً بالنسبة اليّ. اما اليوم فهي أقنوم تخيفها مفاتيح السيارة في يدي والحذاء الثمين في قدمي والثوب الاصفر الطائر فوق جسدي. هل اقبل دعوتها؟ كلا يجب ان ازيد في عينيها دلائل التذلل والاسترحام والضعف... يجب ان انهش منها لتتحول بجانبني الى اقل من أقنوم.

وتركتها وهي تصرخ: "ارجوك" ونزلت اسرع في فتح باب السيارة، في ادارتها وفي الاقلاع بها...

تدغدغني لذة وانا اناأمل مادلين من بعيد تشيعني بنظرة فيها حسد والشاب الطويل بنظرة فيها اعجاب.  
تدغدغني لذة في طرق باب مدرسة دولي التي حرّم عليها الخروج هذا اليوم.

وعندما قدمت الى الراهبة الرئيسة قررت ان استجمع كل قوتي لأفرضها عليها، لأفرضها على هذه التلميذة التي تضحك قبالي ورفيقتها التي تحق بثوبي الرائع:

كادت الدموع تنفر بوقاحة من عيني دولي وهي تمد لي يدها بقرف:

- مبروك... يا ندى... والدي اخبرني انه اشترت سيارته.

تندفق عليّ الكلمات مزاريب من المرارة والحسد واللؤ وتجنّم على عنقي تحنقني فأحسب ان عيني دولي تدوران  
لتسرقا مني الحياة وتستولي هي على السيارة والكيان...

يجب ان أرهقها:

- دولي كيف مجرى الدروس؟ أنصحك أن اجتهدى واهتمى بالرياضيات والعلوم...

لم تستطع ان تتحمل ثقلي فضاقت به وكادت تحوّل هذا الضعف شتيمة لاحت في أسنانها غير انها اكتفت  
بالتأفف وغابت عني.

يفرحني أن أعذب هذه الفتاة. أتخيلها تنام على السرير في المدرسة وتمزق قميصها قهراً وتقضم اللحاف مرارة.  
أتخيلها تبكي وتصرخ وتشتّم، وتمزق صدرها فتسيل منه أفنية الدم ثم تطبق الغمامة السوداء على عينيها...

لماذا تطبق على عيني وحدي الغمامة السوداء؟

حتى الآن لم أعرف السبب الحقيقي لنوبات الاغماء التي تتتابني كلما توترت أعصابي... قالت لي الخادمة  
مرة انني كنت اصاب بها وانا صغيرة ثم عاودتني منذ عام.

هل استشير الطبيب؟

وتخيلت نفسي ممددة امام الطبيب على طاولة ويده تعبت بثيابي فتشد الصدرية وتمزق القميص وتقطع الحفاظ  
ثم تتركني امامه جسداً عارياً فيحملني ويقبلني ثم يطفئ النور ويحوّلني الى امرأة، الى بطن منفوخ ودم على  
شرشف، الى شلال قيء، الى فبركة للنسل!

رفعت يدي عن المقود أحاول ان أهرّ الطبيب من عنقه وأبصق على وجهه وانشب اظفري في عينيّه،  
فاصطدمت يدي بالزجاج وكادت السيارة تتدهور.

وتأملت نفسي بمرارة، تأملت جسدي، تأملت يدي المرتجفة على المقود.

ولم أضحك، ولم أبك... .

\*\*\*\*\*



هل يؤمن المحاضر ان على المرأة السير دائماً تحت حراسة رجل . فتشت عن الجواب في عينيه فخيل اليّ ان يده الممتدة تصرخ: يجب ان تكوني تحت حمايتي فتجلسي قربي وتصغي اليّ... يجب ان تسكتي عندما أتكلم وتكفي عن هذا التفكير السخيف...

لا استطيع ان اكف عن التفكير. فصوته يبعث في شحنات من الصور: صورة امرأة في فراش مع رجل، صورة ابي الثائر بوجه امي... صورة الخنزير الوسخ يشرشر البصاق من فمه... صورة الصرّار الماجن وثوبي المرفوع، صورة دولي في سيارة حبيبها... صورة جورج وصلعته اللامعة...

هذه الصور لا رابط بينها لكنها تتزاحم في مخيلتي لتسد منافذ القيء في معدتي، تتزاحم لتسد منافذ الصوت الى اذني.

هل في هذه القاعة اكتمال لكياني؟ في كلمات المحاضر كل شيء، فيها القوة والبلاغة والرصانة والعمق والايمان... فيها كل شيء الا الجديد.

فانا أعرف كل ما يقول واؤمن به لكني لا اطبقه لانني لم اعتده، امي لم تعودني التطلع الى نفسي، وأبي لم يعلمني انني جزء من كل، وان كل فرد جزء مثلي؟ لماذا تتحرك بقوة هذا الصلعة؟ لماذا ينتشق هذا الفم؟

من الافضل ان اذهب.

عند الباب قال شاب:

- حرام! لم تجد صيداً لها في الندوة، اعتقد انها لا تعرف زواريب باب ادريس.

اسكته آخر:

- اسكت، انظر مفاتيح السيارة في يدها. انها ادبية على الارجح!

وعاد الاول يقهقه:

- حرام! تعال نوصلها الى البيت... حرام...

لو أنقض عليه واوسعه ضرباً... لكنها مجرد رغبة كسيحة بلا تنفيذ.

أين انا؟ لماذا اجلس في السرفيس؟ كيف وصلت الى هنا؟

أطبقت يدي على الجرس بذعر واندفعت الى الرصيف. وتعاليت ضحكة ورائي وقذفتي السائق "بمجنونة".

مجنونة. وحيدة. غانية. اديبة...

القاب كثيرة تبصق بوجهي الليلة دون أن أجد لها في نفسي مكاناً فمن أنا؟.

وأدرت السيارة.

يجب ان الحق بالسرفيس لأقول للسائق انني لست مجنونة، لأقول له انني املك سيمكا سوداء، ولأقول لصاحب الضحكة انني كنت في "الندوة اللبنانية" وانني كيان.

أمام المكتبة في الغرفة دفعتني رغبة لأفتش عن جديد. نزلت الى الشارع ودخلت المكتبة المجاورة اشترى ثلاث صحف وانكب على مطالعتها وانا في السرير.

امامي صفحتان: واحدة جافة سياسية واخرى نسائية فيها ازياء و عطور ونساء تعيش في عالم خاص.

شددت نظري الى رأي الصفحة السياسية. ماذا؟ خطوط عريضة سوداء تضج بالمؤامرات والاجتماعات والمحاكمات: وقائع جلسة نيابية تحولت الى عملية رشق بالكراسي. وقائع محاكمة مهرب حشيش. وقائع جريمة قتل وقائع اضراب طلاب - وقائع - وقائع...

هل في هذه الصفحة جديد؟

ما أفرق هذا العالم. أكله دم وكراسي وسكاكين واصوات وصراخ!.

خيل اليّ انني كرسي في مجلس النواب يحملني نائب ويقذف بي في وجه زميل له فيصدم حذائي ووجهه ويسيل لعابي على رأسه وينشق بطني فيسيل الدم على عنقه ويسيل الدم اكثر وأكثر حتى يملأ القاعة ويمتزج القيء والوسخ ويتحول الى نهر احمر فيه خيوط قذرة سوداء وخيوط قيء اصفر وخيوط بصاق ابيض. خيل اليّ ان عصي الطلاب المضربين ترتفع بوجهي ثم تنهال عليّ وتضربني حتى أتحوّل الى كتلة لحم مدهوس ذي خيوط زرقاء حمراء وخيوط صفراء. خيل اليّ ان الاصوات ترتفع اكثر واكثر حتى تفجرت رأسي من الزعيق وان اظافر الطلاب في طريقها الى عيني لانني ابنة فريد خوري، ولأن والدي مسيحي متعصب يؤمن ان فرنسا ام المسيحيين وان عليها سحق الثوار في الجزائر لأنهم مسلمون.

غير ان خيال فتاة سمراء يرتفع على ايدي الطلاب يشفع بي: انها جميلة ابو حيرد، البطلة التي يعذبها الفرنسيون، فأصفق لها وأصرخ وأسير مع المظاهرة وأزعق: السياسة للنساء ايضاً، الوطنية للنساء ايضاً... خلصوا جميلة بطلة العرب! وأصرخ، وأحمل عصا، وأحمل كرسيّاً واندفع الى مجلس النواب في باريس وانشب اظفاري باعناق النواب وادخل السجن واحمل جميلة على ظهري وأطير بها فيصفقون لي ويحملونني على

الأكف ويصرخون: تعيش مخلصا العرب، تعيش مخلصا جميلة، تعيش ندى خوري المسيحية التي انقذت المسلمين في الجزائر!

كم اتعبتني هذه الوقائع!

وسرحتُ نظري الصفحة النسائية بين ازياء ديور ونصائح تجميل وعمليات تمرين وحل مشاكل.

قرأت وتلذذت غير ان الوتيرة الواحدة ضيقت صدري وأحسست انني في قفص محكم، في غرفة رجل ألبس لأجله، وأتزين، أمرن جسدي لأجله، وأنصرف الى دروس في تربية الأطفال لأجله.

فمزقت الجريدة وأنا أضحك.

\*\*\*\*\*



بائع اليانصيب الضخمة والشخص المنسوب في واجهة غندور. في التمثال الكبير عند هذه المكتبة وفي ضحكة الشاب المترهل قبالة ذلك المقهى، في كيس النقولات وفي محمصة دكان النقولات.

يكفي كياني انني افتح محفظتي ساعة أشاء واملك السلطة على هذه القطع المعدنية في جوفها. يكفي ان بيتاً بكامله لا يملك ان يقول كلمة واحدة خارج إرادتي.

فهل أنا سعيدة؟ ولماذا لا أكون سعيدة وأنا أطير بسيارتي؟

سعادتي تطفح من عيني الواثبتين الى الشارع وتتغلغل في يدي الممسكة بالمقود وتضج في قدمي المتسلقتين درج الارنوماتيك. ووقفت عند قمة درج الطابق العلوي: صحف مرتفعة، خشخشة ورق ووشوشة همسات، قهقهة وضحك، قرعة صحون وملاعق وفناجين.

أزحت طاولة ارمي عليها القفازات والمحفظة ومفاتيح السيارة فمن حقي ان اضج وأحرك الكرسي واططق بالمفاتيح واحداث ضجة تثير الانتباه اليّ.

ومسحت نظارتي فتسرّبت اليّ من عيني الشاب المبجلق فيّ نار حرقتي.

لماذا يتألمني؟ هل حركته مفاتيح السيارة في يدي، أو أثارته شفتاي اليابستان؟ هل أعجبه شعري المنثور بفوضى على جبتهتي؟ هل انا جميلة؟

لو كنت أحمل مرآة لرأيت جواباً لكني لا اهتم بزينتي. يكفيني انني كيان استطيع ان أجبر هذا الشاب على اقتلاع عينيه عني، يكفيني انني استطيع ان أمر الخادم بقسوة. "اعطني واحد قهوة".

هذا الشاب ضعيف وجبان واقنوم يسترق النظر اليّ من وراء الجريدة. انه ينتمي الى حزب.

وفتشت عن الاحزاب ورأيت: شار آخر يمسك بجريدة حزبية، وآخر غارق في جريدة حزب ثالث... قليلون يمسكون بصحف حيادية أقرأها انا فمن افضل انا ام هؤلاء الحزبيون؟ أخرجت "دروب" من المحفظة البنية افتش عن الجواب والجديد، افتش عن الحاجب المرتفع بـ "لا، انت كيان" لكن نظرات الشاب تحرقني، تغرز سهامها في لحمي حتى تتخر عظامي. انه يعريني ويحولني امرأة على سرير وجسداً عارياً ممدداً برخاوة. فهل يحميني دروب من عينيه.

قربت فنجان القهوة من فمي. شعرت بدفء البخار وخيل اليّ ان رجلاً يلهث قربي في الفراش، وان هنري عيد يدفئ عنقي بقبلاته والشاب المقابل يكظم شهوته.

أبعدت البخار. أمسكت الكتاب بشدة فيجب ان أخلق هذه التخيلات وأرفس فم هنري وأقمع الشهوة في فم الشاب الوقح.

إذا هجم عليّ الشاب الوقح الآن وكمّ فمي ومزق ثوبي وعراني وعاتث بجسدي وحولني امرأة، خيوط دم على شرف، أمّا، فمن ينفذني؟

تطلعت حولي: رجال... هناك امرأة واحدة غيري، فمتى ينفذني؟

إذا هجم عليّ الشاب الوقح يساعده الباقون وينهش كل منهم نهشة من جسدي.

تحسست صدري فإذا به مطمور بالशलّ الأزرق والياقة العالية.

صدري محصن بينما ينبج ثوب المرأة الأخرى في الزاوية عن صدرها الأبيض البض. لماذا لا ينظر هذا الشاب الى تلك المرأة؟ لماذا لا تحتم شهوته أمام صدرها الأبيض النافر؟ انها محمية. انها تجلس مع رجل اما انا فاني وحيدة وبلا حماية. انا مشاع للانظار والتحرش والشهوة.

وحده كياني ينفذني من هذا المأزق.

صببت القهوة في فمي دفعة واحدة ووضعت "دروب" في المفحظة واستعدت اشيائي واندفعت أهبط الدرج.

وأشار اليّ الكرسيون:

- ثوبك مرفوع يا آنسة.

صعقتني طرف ثوبي المرفوع من الورا. خيل اليّ ان فماً واسعاً يتفكك عن ضحكة ماجنة وان الصرار الماجن يدفع بقضيب صغير الى الفضاء والشهوة تشع منه.

نفضت الثوب. قدفت بنفسي الى الشارع وارتيمت في السيارة واجهشت بالبكاء.

لماذا أبكي؟

رغبة جامحة تحرضني على العودة الى المقهى وصفع الشاب الوقح، وصفع الكرسيون الوقح، وصفع المرأة الوقحة، وتحطيم الكرسي فوق رؤوس الحزبيين.

غير اني تراجعت. وفي الطريق أشار لي الشرطي وأمرني ان أمر.

مسكين! انه رجل. في شاربه الأسود لؤم وشهوة تحتم أمام فتاة وحيدة في مقهى. أود لو اقتله، لو أصفغ شاباً ما. لم اصفع في حياتي رجلاً. لماذا لا أجرب فأذوق هذه اللذة؟

فاللذة التي أحسستها عندما صفعت خادم الفران غير اللذة التي أحسستها عندما صفعت زوزو.

صفع ولذة. وصفع، ولذة، أشياء حلوة.

يتبعني بائع العلكة. صفعته ورميت بيده خمسة قروش ليسكت.

سخر أمامي الولد الذي يحضر القهوة لجورج في المحل. صفعته ورفسته في ظهره.

بائع الجرائد يصفر. صفعته ورددت له الجريدة.

صفع، ولذة، صفع، ولذة.

دائماً أصفع الصغار. أصفع خادم الفران وبائع الجرائد، بائع القهوة وزوزو... لماذا لا أصفع الرجال؟ هل أجرب صفع جورج؟

أثارتني صلعته اللامعة ورقبته الغليظة - حاولت ان أحرك يدي وأمطها، لم تتحرك. أخاف ان يثور فيهجم عليّ ويمزق ثيابي ويحولني الى امرأة وبقع دم.

وقفت في الباب: هذه الأسراب من الرجال لماذا لا تتقدم مني وتركع عند قدمي فأصفعها وأمرمغها حتى تتحول الى كتل لحم أحمر وشرايين، ودهن أبيض، ونهر دم، نهر يطوف ويجرف.

هربت فالنهر يطفو على الباب... النهر يعلو، ويغرق جورج... هربت الى غرفة التواليت. النهر يعلو، وقفت على المراض، النهر يعلو... تعمشقت بالنافذة الصغيرة. النهر يعلو...

وحسبت ان قدمي تبتلان وان الدم يرفع ثوبي ويطمرني، وعلو حتى يصل الى صدري وعنقي وفمي وعيني وشعري.

من يخلصني؟

وإذا بي اقع على الأرض، الأرض البيضاء.

أين الدم؟ تأملت الجدار ونفسي. تأملت المحل وتأملت رأس جورج. أين الدم؟

ارتيمت على المكتب وطوق حاد بجروني الى البكاء. فككت الياقة. ماذا يضايقني بعد؟ رفعت الشال الصغير.

الدم يشدني الى السيارة، الى المقود، الى الصفع، الى رؤية خيوط زرقاء على وجه خشن.

من اصفع؟ إن يدي تحرقني.

من أصفع؟

عندما دخل تاجر حركتي ثورة ووقفت، فهزني الوجه المستدير.

رأيت هنري عيد يتحول الى ذئب يمزقني بأسنانه ويحولني امرأة، بقع دم على شرشف، بطنها منفوخ وام طفل  
يربطني بالبيت لأطعمه، وأحرسه وأنظفه.

طفل ينزل بي الى عالم النساء، عالم البيت عالم دولي ومادلين ووالدتي. تحركت من مكاني لأخلي المكان  
لبطني المنفوخ.

تحسست بطني وغرزت اظفاري فيه وتنفست الصعداء...

\*\*\*\*\*



وبدأت أرتجف، وغلت رجفتي حين رمى يده على يدي، فكومت جسدي في الزاوية وأزحت رجلي الى الخارج والقيت بتقلي كله على حافة المقعد الخارجية. تمنيت لو اقلع هذا المقعد وابعده به عن النار المنصبة عليّ من العيون الكبيرة السوداء، عن الضحكة العاهرة والشفة السفلى المدلاة.

بحثت عن رأس الشاب الأشقر، عن نظرتة الهادئة. أريده، هذا الأشقر الهادئ، أريد حماية، وكل جزء من جسدي بحاجة لحماية: نهدي وثوبي وشعري وشفثاتي.

ولكني كيان!

استقمت على المقعد وطوقت عنقي العاري بالشال الطويل الأسود واستبدلت نظارتي الخضراوين بالبيضاوين. ثم لملت مفاتيح السيارة من جوف المحفظة.

مفاتيح السيارة حماية...

طقطقت بها، فتحت المحفظة من جديد، سحبت منديلاً. أطبققتها، فتحتها، رميت المفاتيح. اطبققتها. فتحتها، رميب المنديل الوسخ. أطبققتها. فتحتها. سحبت المفاتيح من جديد. أطبققتها. فتحتها تك - تك - تك - تك حماية!

أمسكت بمفتاح البنزين أتأمله فالتفت الشاب قربي وحملق في يدي.

غرق فيها فرغبت ان اغرزها مع المفتاح في عينيه الكبيرتين وشفته المدلاة وفمه المشقق بالشهوة وانفه المتربع بعنف وخصلة الشعر المسدلة على جبهته.

احسست بقوة فالمفاتيح حماية.

الشاب لا يزال يغرق في يدي. اخفيتها تحت الشال. الشاب لا يزال يغرق في يدي الأخرى. أخفيت الأخرى في صدري. الشاب لا يزال يغرق في ذقني، في عنقي في انفي وعيني وشعري.

أين أخفي رأسي، هل اذوب؟

واطفىّ النور...

ظلام. الظلام غرفة وسرير عليه امرأة عارية وفوقها رجل، بقع دم على شرشف. فتاة تُفَصّ، وبطن منفوخ، ونسل.

ويهجم الشاب الأسمر على البركة التي يغرق فيها: على فمي وانفي وعيني، وشعري، يهجم على جسدي فيعزّيه ويحمله وينهش منه، ويعضّه، وبمزقه، ثم يرميه.

شدت بطني بجنون. انتفضت، انتفضت، بطني يكاد يلتصق بظهري.

أين الانتفاخ؟ والطفل؟

همست: "مستحيل" فضحك الشاب قربي لرفيقه قائلاً:

- هل حسبت انني لا استطيع ان أمضي الليل في السيارة؟

لم يجب الأشقر. قرّب رأسه الى الأمام يفتش عني وسط الظلمة.

انا كيان!

سحبت يدي من الشال ورفعت رأسي الى فوق افرفط عن نظارتي حبات الخجل الغائمة.

ماذا أرى؟

الشاب الذي يغني يشبه الشاب الأسمر ذا الفم المشقق بالشهوة وخصلة الشعر المدلاة على الجبين المربع. وأحسست من جديد بيد ترتمي فوق يدي. لم أسحبها استقمت واستدرت نحو جاري الأسمر اصب نارياً حما على وجهه. فضحك وقرّب رأسه مني:

- الوحشة تحطم الأعصاب. اطمئني، سأمضي الليلة معك.

وضحك من جديد. فلم أعد أقوى على كتمان غضبي. ولم أشعر الا ويدي تنهال على وجهه وفمه وشعره وصدرة.

وانحللت على المقعد الهث، ورميت رأسي الى الورا وأنا ألهث. وكادت الغمامة السواء تنسدل فوق عيني فانصببت ثم ارتميت، ثم حركت صدري وعنقي.

يجب ان تدب الحركة في جسدي فلا تنسدل الغمامة السوداء. وحركت فمي: "كلب..." ورفعت صوتي أكثر: "حذاء، خنزير، كلب..." تمنيت لو يخرس هذا المطرب الرخو لأصرخ من الميكروفون "كلب، حذاء، وسخ" تمنيت لو يرتفع المقعد بي الى فوق لأصرخ: "خنزير، بلا شرف".

ومستّتي راحة وانا أصوّب الأنظار المجاورة اليه الى "الكلب" و"الخنزير" و"البلا شرف".

واستعذبت يده الملتصقة مكان الصفحة على وجهه. أراحتني نظرتة النارية، اراحتني خصلة الشعر التي تاهت على جبينه.

وقال الشاب الجالس أمامي. "يستأهل أكثر من هذا" وهو يرمقني بطرف عينه.

صفعة!! تأملت يدي.

اليوم صفعت رجلاً وحققت أمني. شبعت يدي من الصفع!

تمنيت لو يغضبني الشاب الأسمر من جديد لأصفعه، لأشبع من الصفع، من اللذة، لأشبع هواية اصابعي.

صفعة الشاب هذا غير صفعة زوزو او خادم الفران، او بائع الجرائد.

لذة! في كل شيء لذة. انا كيان لذة، أخرج وحيدة من السينما... لذة... أقطع بمفاتيح السيارة... لذة... أنا أدلف نحو... السيارة، لذة.

عندما أدت المحرك رأيت الشاب الأسمر يقف أمامي ويسرق على مفكرة صغيرة رقم سيارتي.

هو الآن وحيد تعذبه الوحدة وتخنقه وتذكره بأصابع خمس تمتد الى وجهه وشعره وعنقه فتصنع وتخلف اثرأ احمر تتبع منه النار.

واقلعت. وعندما ابتعدت شعرت برغبة جديدة للصفع.

يدي آدمنت الصفع. أصابعي تعودت الألم الجامد فالتحول الى حرارة في الدم.

ألم الصفع لذة. ولذة ان أغامر. ولذة ان أذهب الآن الى الاوتوماتيك.

عندما طلبت من الخادم صحن كاتو، لفت انتباهي الرأس البائنة من الدرج، شعر أسود يرتفع وجبهة عريضة سمراء وخصلة تائهة ثم؟

عينا الشاب الأسمر وخصلة شعره تتبعني. شفته المدلاة تتبعني، وفمه المشقوق بالشهوة يتبعني.

أمسكت بالطاولة لتشدني الى الجلوس، ظلت أعصابي تهتّر وتثور على عينيه المائعتين.

واشدت وطأة النار علي من عينيه... ارتجفت مع ارتقااص شفته السفلى واحمرار عينيه وارتجاف يده المطبقة على فنجان القهوة.

هل تحتدم في نفسه رغبة للصفع، للتمزيق؟

يجب أن أذهب. أزحت الصحن أمامي ويحثت في محفظتي عن معدن أبيض فاذا بالشاب الأسمر يهرب، ينزل الدرج راكضاً ويختفي.

مسكين! لقد خافني، خاف الصفع واللذة...

انا كيان.

أي فتاة غيري تجسر ان تدق برجلها هذا الدرج والساعة تعلن النصف بعد منتصف الليل؟

كياني قوي. فأني فتاة تتحدّى نظرات الخدم في المقهى وهي تغيب في الشارع الواسع؟

كياني قوي... أي فتاة لا تحتمي إلا بمفاتيح سيارة تريض في انتظارها؟

هناك رجل يتكئ على سيارتي.

كم كتب لي أن أغامر هذه الليلة.

اقتربت، فميزت شعراً فاحماً وعينين واسعتين.

انه الشاب الأسمر! حتّام سيظل يتبعني؟

أنا كيان...

شدت رجلي الى الأمام أكمل وأخبط، وأكمل واسحب المفاتيح من المحفظة.

باستطاعتي ان أنادي البوليس لكني لا أريد.

وأكملت، وقفت بوجهه، حدقت بالنار المنصبة من عينيه. وأحسست بالدم يغلي في يدي. يدي مدمنة على الصفع!

حدقت فيه فابتسم ثم ضحك ثم أراح رجله اليمنى وهو يهزّ رأسه، فعادت يدي المدمنة تهتف أنها جائعة!

لم اشعر إلا وكفي تنهال على وجهه، عينيه، رأسه، صدره. ثم انقذت بالسيارة وانطلقت بسرعة.

هل أنا هاربة؟

خيّل اليّ ان عينين واسعتين تلتحقان بي وتدلّقان النار على رأسي.

وزدت سرعتي، وخيّل اليّ ان جبهة واسعة تنتزه عليها خصلة شعر تسد الطريق أمامي.

انطلقت بسرعة جنونية. لم أعد أقوى على السير، أعصابي شلت، والغيمة السوداء تؤذن بالانسداد على عيني.

أوقفت السيارة أمسح عرقي فاذا بسيارة حمراء تقف ورائي. الشاب الأسمر؟...

يجب أن أنطلق. وانطلقت كدت أطير... السيارة الحمراء تتبعني. يجب أن أضلها. غيرت الطريق... لا تزال تتبعني.

ماذا يهمني اذا تبعته؟... خفت سرعتي وسرت بهدوء نحو البيت.

ومن المدخل رأيت السيارة الحمراء ورائي تخفف سرعتها وتقدم ببطء. ركضت على الدرج... المدخل مظلم.

اذا تبعني الشاب الى هنا يستطيع ان يغتصبني. فالمدخل مظلم...

اسرعت. ابتلعت قدمي الدرجات دفعة واحدة... عاندني مفتاح الباب، وظننت اني اسمع وقع اقدام. وعندما انفتح الباب هزعت الى الداخل وارتميت منهارة على المصراع الذي انغلق بعنف.

وشعرت بالبرد فجررت نفسي نحو السرير، نحو عمود الثياب، نحو البيجاما... وعندما طمرت رأسي بالوسادة غرقت في الدموع والخيالات، خيال الشاب الأسمر يتبعني على الدرج، يكلمني، يحملني الى السيارة الحمراء وينطلق بي.

خيال غرفة مظلمة وسرير وجسد عار ودمي على الشرفف وبطني الذي يبدأ بالانتفاخ.

خيال الشفة التي تنهش مني.

خيال الوجه الأسمر المتمرمغ بعنقي وصدري.

خيال اليد الضخمة التي ترد لي الصفعات...

صفعة على وجهي فيسيل الدم على انفي، فيسيل الدم على عيني فيسيل الدم، صفع، لذة، صفعة على بطني.

وألبث أن غفوت، رغم انني ظننت ان الفزع سيؤرقني. أجل نمت، ولا أذكر ان كنت قد حلمت بشيء.

\*\*\*\*\*



وعادت الضحكة تردد صداها في أذني: ارجوك، دائماً تغضبين... والكلمات المائعة تتساب اليّ بفجور:  
انتظرك أمام الاوتوماتيك. ولم أعد اقوى على الوقوف.

غير ان سماعة التلفون كانت تقول لي: ابتعدي وعيني جورج تقولان لي: اغربي من أمامي، ووجه الزوجة  
يقول لي: لماذا تقفين بعد هنا؟

ورابت خيال أصابع تشير اليّ: هذه السخيفة تلبي دعوة شاب. وخيل اليّ ان جورج والتلفون والزوجة والغرفة  
والأرض وكل شيء يضحك مني قائلاً: ماذا، هل انتهت المكالمة الغرامية؟

انهال الدمع من عيني، مزقت غطاء الوسادة، كدت أكسر الزهرية الرابضة على المكتب جرحت أصبعي بحديد  
النافذة، وأنا أخبط عليه.

لماذا أفكر وأبكي؟ لا أدري.

أشعر فقط ان عليّ أن ابكي واضرب واصفع لأتلاذ.

وقمت عن السرير، صفعت وجهي وصدري وجبيني.

أود لو أموت، هل الموت لذة؟

لماذا اتصل بي هذا الكلب، وكيف عرف رقم تلفوني؟

هل انا كيان؟ فلأضحك!

كياني بنيته منذ البدء على المغامرة فلماذا لا أكمل الطريق؟ لماذا يؤلمني ان أتعرض لحادث كهذا مع شاب  
وقح؟

هل أخشاه؟ هل أعجز عن تعذيبه؟

قصدت الاوتوماتيك قبل الموعد بساعة.

هو هو يقطع الشارع نحو المدخل. هل رأيته؟ هل يبس؟.

ظل السؤال وأنا خائفة من قدومه اليّ ومن الغضب المتمثل في خطواته.

انتظرت دقيقة، دقيقتين، خمساً... الساعة تشير الى الخامسة والنصف ولم يصل بعد.

أين هو الآن؟ لعله في الطابق الأرضي.

وانتظرت العقرب في طريقه الى الحرف السادس فالسابع فالثامن. متى تحين السادسة؟

أمسكت بالجريدة التي في يدي أتصفحها. خشيشها يثير انتباه الرجل عن يميني. ومحفظتي التي وقعت تثير انتباه الشاب عن يساري.

أدرت ظهري أتأمل الرؤوس المتكئة على الطاولات: شبان وفتيات ورجال، وصحف وقهوة.

لماذا أتيت؟

هبطت الدرج والرؤوس تموج تحت ناظري. أين الشاب انه ليس هنا. وهبطت حتى الباب. لماذا تسمرت في الباب؟ لأنني أخاف ان يكون في الخارج فينهال عليّ صفعاً اذا رأي.

لكن الباب يلفظني خارجاً وعين الرجل قبالتني تقول لي: قطع عينا النور. اذهبي.

في الشارع أسرعرت. تأملت السائرين ورائي. خيل اليّ ان كفاً غليظة تنهال على رقبتني من وراء.

هل الشاب الأسمر ورائي؟ لا. اسرعت.

وعادت الصفعة الى عنقي. من؟ لا أحد. لا يركض ورائي الشاب الأسمر. وما كدت ارتمي على مقعد السيارة حتى صدني الجبين العريض وخصلة الشعر التائهة والعينان الناريتان والأنف الحاد والشفة الفجعة والفم المشقق بالشهوة.

اتسع الوجه أمامي، اتسع، تحوّل الى دائرة كبيرة، تدور في طريقها اليّ.

والتصقت بباب السيارة، الصقت رأسي بالزجاج - رفعت يدي - الدم في يدي يثور.

وازدددت التصاقاً بالزجاج ولم اشعر إلا ويدي تنهال على الفم المفسخ بالشهوة.

- ما دمت قد لببت الطلب فلماذا لم تنتظري في الخارج؟ هكذا قال. وأكملت أصفعه.

- لا. الجو ليس موافقاً هنا - تعالي الى الطابق السفلي من الاوتوماتيك. هزئ ضاحكاً.

وبقيت يدي تنهال على الوجه الخشن، ولم أشعر إلا بالارتخاء يعمني وغمامة على عيني.

يحطم الصداع رأسي.

أريد أن أشرب.

وامتدت يد بيضاء بكوب ماء ورأيت قبعة عريضة وعينين زرقاوين تشعان بالعطف.

أين أنا؟

- لا تخافي، في المستشفى. لقد أصابك إغماء.

تدحرجت من عيني دمعة باردة كوجهي فانا أشعر بالبرد.

وعندما رميت قدمي عن السرير صفعني الوجه الأسمر في الباب:

- ندى، كيف أصبحت الآن؟

كدت أصرخ غير اني ضعفت. وبحثت في وجهه عن شيء يربطني بالوجه الذي كنت اصفع... لا شيء.

وجهه بارد هادئ أصفر. وعيناها بركتا عطف ولهفة. وفمه آهة وانفه وجوم...

اقترب ومد يده وأمسكني من كفتي ورفع رأسي اليه:

- ندى كيف أصبحت الآن؟ ارجوك...

وسالت دموعي، تمنيت لو يقترب مني أكثر ويشدني الى صدره فانا بحاجة لرجل، بحاجة لحماية.

وظلت دموعي تسيل ووجهي مشنوق بين يديه وسؤال يتكرر:

- ارجوك يا ندى، كيف أصبحت؟ أكاد أتمزق.

وكادت الغمامة تهبط ثانية على عيني فأبعدته الممرضة عني غير انها لم تستطع ان تبعد عني خيال عيني،

وبرك العطف والحماية، لم تستطع ان تبعد عني الرغبة في الحماية والحاجة الى رجل.

هل انا بحاجة لرجل؟

هل انا بحاجة لنبييل الشاب الأسمر ليظل قربي في السيارة، أغرق في صدره، يشنق وجهي بيديه، يهبط بشفتيه

على فمي وصدري؟

- بماذا تفكرين حبيبتى، ألم نتفق بعد؟ قال نبييل:

لم استطع ان أجيب ولم أستطع ان أنظر اليه عندما أوقف السيارة، ولا ان أمد يدي ليده المستعطية تحية

وداع.

أريد أن أبكي، ان أطمر رأسي بصدر ما، أريد أن أموت!

أغلقت الباب وانتقلت الى المقود أنطلق بسرعة.

أين أمضي؟

لماذا أتجه نحو الدامور، أوقف السيارة قرب البحر، أبكي؟

ورميت رأسي على المقود وشدت شعري وانا أبكي وعضت على شفتي اريد ان أذوب دموعاً. وأنشبت أظفري بصدري تترك وراءها اصابع صفراء فحمراء فزرقاء فخيوط دم. ورسمت الخيوط الحمراء في صدري حديقة مخططة ماسحة نعال حديدية.

الخيوط الحمراء في صدري تسيل وتتعرج أخافني الدم الأحمر، نهر يطوف، يعلو، يجرفني الى البحر والموت.

هل أريد أن أموت؟

هربت من الشاطئ. هل يتبعني الموت؟ أسرع. هل يتبعني؟ أسرع بجنون. هل يرتفع نهر الدم؟ كدت أطيرو.

صدري كوجه نبيل عندما يصفع... فلماذا كنت اصفع نبيلاً؟ لماذا لا أفتش عنه وأصفعه آه هل في صفعه بعد من لذة؟

خفق قلبي. إن كل سيارة حمراء تسبب خفقاناً في قلبي. فنبييل يملك سيارة حمراء وأنا أملك سيمكا سوداء.

ترى، هل هناك تجاوب بين اسمي نبيل وندى؟

المفتاح المتحرك في الباب تك تك يقول: نبيل... ندى... الباب الثاني الموصل الى غرفة الاستقبال كذلك. لكن وجه جورج الغاضب يزجرني ويزجر التك تك ونبيل... وندى، فيسكتها ويسكت خيالي ونظري.

- أنسة ندى الا تملكين ساعة؟

فتشت عن الساعة في يدي.

- ندى، الساعة التاسعة. الفتاة لا تبقى حتى هذه الساعة خارج البيت.

ولم أعد أحتمل السيل الباقي من الكلمات. تراجع وتلتصقت بالمكتب ورفعت يدي. في يدي الدم يتحرك. هل أصفع جورج؟

لكنه شنق وجهي بيده:

- انظري اليّ يا ندى، انظري اليّ!

ولم أتحمّل أن أغرق في عيني جورج. عيناه نار. عينان تلمعان بالدموع:

- هل تشكين بي؟ اذا كنت تملكين سيارة فهذا لا يبرر بقاءك حتى التاسعة خارج البيت. انا لا أشك بسلوكك لكني أحب ان أصونك من الألسن.

وخلعت رأسي عن يده. أريد أن اغرق، أن أهرب. أريد أن أموت الآن فالخجل يسحقني.

ولكن ماذا فعلت؟ هل عرف جورج انني كنت في المستشفى، وفي الدامور، فتشتت عن الجواب في عينيه فابتسم ثم ربت على خدي وقبّلني. اذا عرف جورج ان نبيلاً حملني بالسيارة من المستشفى، اذا عرف التّك تك نبيل - ندى، فماذا يفعل؟ هل يصفعني؟ هل يشعر بلذّة الصفع؟

دموعي تعود الى الثورة فوجهي بارد والدمعة ساخنة، الدمعة على خدي لون أزرق مشرب بأحمر، لون بقايا صفة، لون ماسحة نعال كالتني على صدري.

حملت المرأة: صدري واسع وأبيض.

وفتحت القميص: صدري يتسع لصدر رجل. أبعدت القميص ايضاً، صدري مثير. أخرجت ثديي من الصدرية: صدري يحرك الشهوة...

وانهال على صدري خيال نبيل، ينهشه بأسنانه، بشفته الفجعة. خيال نبيل يمزق عني الثوب، يعريني، يحملني بين يديه، يعض لحمي الأبيض، ويحولني الى امرأة وبطن منفوخ.

ارتعدت... رميت المرأة الصغيرة وأرجعت ثديي الى الداخل.

لقد بدأت أشك بأنني حقيقة أكره "هذا الشيء". فاذا كنت حقيقة كذلك فلم لا أنقطع عن الحلم به؟

\*\*\*\*\*



- هل تسمحين؟

ارتبكت، وتلعثمت. غامت عينان بضباب حار تكدس على نظارتي. اختتقت، فار الدم الى وجهي. ويدي الدائرة على الطاولة دون هدف، الى عيني، ففاضت دموعي وكادت الغمامة السوداء تهبط من جديد.

لم اشعر الا ومحفظتي تختنق بيدي وقدماي تزحفان نحو الدرج.

وأين أمضي؟

لماذا هربت؟ ما الذي دفعني الى الركض لا أدري. أشعر ان عليّ ان ابكي، أدق رأسي بالمقود، أطير بالسيارة في طريق الدامور، أقف ضد الشاطئ وأغرق نظري في البحر الهائج.

لو كنت كياناً لاستطعت ان اتسمر امام نبيل واتحمل نيرانه لكنني لست كياناً! ضعفي يخزن الدمع في عيني ويفجره لأظل أبكي وانا أعود، وانا أرقب السيارات الحمراء واجتاز الشوارع واكفر بأوامر الشرطي واهبط من السيارة امام البيت...

كل شيء يذكرني بأفنومي: التاك تك في الباب والغرفة الفوضوية والسرير المشعث والوسادة المرمية أرضاً والزهور الذابلة في الزهريّة ووجه جورج البائن من الباب:

- ندى، العشاء جاهز.

لكني لا أريد ان أتناول شيئاً فاندفع لأغرق الوسادة والسرير والغرفة كلها بدموعي.

وأطبقت يدي على عنقي أشد فحظت عينايا ثم ما لبثت عن عجزت عن الشد ووقعت على المكتب بلا وعي.

الام ينبع من جورة في رأس خدي الأيمن!

- لا تخافي، نظارتاك انكسرتا واحدتنا هذا الجرح البسيط... قالت الزوجة الملهوفة.

فتحسست الجرح البسيط ورأيت على الأرض بقع دم، فوق رأسي ضعفاً بين يدي جورج.

جورج يتأمل وجهي بمرارة ووجوم، والزوجة تفرك إبهام يدي، وزوزو يبكي في الزاوية عند بركة الدم، والألم ينبع من الجرح في خدي، من صدغي من عنقي ومن عيني. لكني انا المذنبة.

قلت لك الف مرة ان الغضب يفقدك الوعي.

قالت الزوجة فاسكتها جورج وهو يجلس قربي:

- خذي كوب اللبن، ارفعي رأسك قليلاً...

وسمرت عيني على الباب الخارجي. متى يظهر الجبين الواسع والخصلة المتأرجحة؟ متى تبين شلالات النار وتأتي الشفة المكتنزة بالشهوة؟ متى يحضر نبيل ويشنق وجهي بيده؟ لكنني في غرفتي وجورج يمسك كوب اللبن ويدسه في شفتي.

أخاف من عيني، من وجومه، من ثقته الكبيرة بي. ويكبني الخوف فلا أصفعه، عضضت اصبعي وغرقت في الفراش. في الفراش انا وحيدة، في المقهى وحيدة، وفي السيارة وحيدة.

والآن انا أسير وحيدة دون هدف. بلى، أفتش في اسواق بيروت عن شيء أحسه ولا أدركه، أفتش عن شعور أحسسته قرب نبيل وأحسسته قرب جورج، وأحسسته عندما جمعني الفراش بزوزو.

انا وحيدة... لكن ألسنت كياناً؟

بلى، ويجب ان اتحكم بأعصابي.

انا كيان أشترى كل ما ارغب، أدخل باب محل الأزياء وأمد أنفي الى الواجهة، أخبط سوق الطويلة واططق بمفاتيح السيارة امام ال.أ.ب.ث. دون خوف.

كيان، وهذه المرأة التي يجرها رجل اقنوم والمتعمشون بأبواب الترام اقانيم.

وقفت: هل الدراهم محصنة في محفظتي؟ هل المفاتيح سالمة في يدي؟

اخاف، واقلق وأضيع...

وخيال نبيل يشدني الى الاوتوماتيك، الى الطابق السفلي والكرسي الجلدي قرب البركة الحاملة والعمود الضخم والحماية.

هل لهذه المفاتيح معنى في يدي؟ وهل لهذه الزاوية المحصنة من محفظتي هدف؟

ما معنى هذه الخطوات الواسعة التي تجرني نحو الريفولي والمعرض؟

أسير وأحرق هذه الساعات بلا هدف ما هدفي من الحياة؟ انني ضائعة وتائهة يجرني شعور أحسه ولا أدركه، يجرني الآن من جديد نحو الاوتوماتيك نحو الباب الزجاجي المتحرك واحواض النبات الاخضر بالبركة والعمود وخيال نبيل.

نبيل ضرورة وحاجة تعوي في.

هل ألبى النداء؟

لا... سأحطم اعصابي هذه المرة، سأحطمها بهذا الباب الحديدي والمقود الصلب. سأحطمها بدواليب السيارة التائهة.

زمر السيارة يقول: انا كيان، والمقود يصرخ: انا كيان ومحفظتي تعوي: أنا كيان... السيارة التي تجاوزتها تعلن: انا كيان... انا كيان!

رميت التمثال الذي اشتريته على المكتب، انا كيان، انزلت "دروب" من المكتبة: انا كيان، اشتريت "النهار" ومجلة الاسبوع العربي: انا كيان.

قرأت، رتبت الغرفة، كتبت مذكرات، تمددت على السرير، علمت زوزو، قرصت ابن الجار وانا اعلمه، ساعدت جورج في تصفية حساب الشهر. انا كيان!!

لكن شيئاً رغم كيانى يشدني نحو الاوتوماتيك.

هل ينتصر كيانى؟

أخاف... تخيفني السيارة الحمراء الراكضة أمامي فيركض قلبي وينقبض، سينتصر كيانى بالتوقف عن تتبع هذه السيارة الحمراء؟

توقفت.

كيانى يكفر بالرجال، بنبيل، بهنري ما دام يعيش في عالم الغرفة الخاصة والسيارة والراتب.

ضربت رأسي: يجب ان انسى نبيلاً، ويجب ان تسكت: التك تك نبيل - ندى.

صببت زيتاً على المفتاح، على مصدر التك تك فحفت ثم اخفت.

والآن انا قوية، لقد انتصر كيانى، تشهد لي السيارة الحمراء المارة امامي دون ان تترك تخبطاً في قلبي، يشهد لي الاوتوماتيك الذي يثير الاشمزاز في نفسي، تشهد لي أحواض النبات الأخضر الفاشلة أمام عيني، ويشهد السرير البارد تحت جسدي...

فعلى مثل هذا السرير سأظل وحيدة بلا ثقل رجل فوقى، بلا بذرة غريبة فوق رأسي، بلا بطن منفوخ ومخاض ودم.



وأسرت أضع يدي في يده الدافئة:

- الخواجة جورج تلفن ولم يجدك في البيت فاتصل بي لأخبرك انه سيقضي الليلة في الجبل مع زوجته لأن امه مريضة. انتبهي لزوزو.

زحفت ببلاهة من تحت رحمة نظراته الغريبة ووقفت في المدخل: جورج لن يحضر؟. قطعت درجة. وقفت: سأنام وحدي في البيت؟ سأنتبه وحدي لزوزو؟ سأحضر بيدي العشاء؟

أخاف ان يلحق بي أحد فانا وحيدة في البيت، بلا حماية، وأختنق ضمن جدران اربعة...

تهت في البيت: الغرف المتعددة، الاثاث الضخم، المفاتيح الداخلية، الستائر، الأبواب، النوافذ، كلها تحت تصرفي فانا وحيدة.

فتحت خزانة الزوجة، اغلقتها، واعدت الكرة مرتين، وتأملت الأثواب الرائعة المعلقة بالزرد، فتحت الراديو، رفعت الصوت.

الآن لست وحيدة. فالمذيع يشاركني هذه الوحدة ومع موسيقى الجاز المنبعثة بجنون.

وعدت أفتح الباب واغلقتة، فانا كيان، غنية، أملك زمام هذا البيت.

أشعلت المدفأة. انا حرة بهذه الآلات. فتحت البراد واغلقتة. فتحت غرفة جورج واغلقتها. فتحتها. فتحت الدرج في مكتبه وتأملت بعض الرسوم القديمة له. وفتشت في جيوب سترته عن... لا أدري عما أفتش.

لكنني حرة في ان أفتش!

فتحت النوافذ، يخنقني الجو. فتحت باب الشرفة. وعلبة الشوكولا في غرفة الاستقبال.

وأنا حرة في التهام كل ما في هذه العلبة.

رن جرس التلفون: ايضا انا حرة في معاندة هذه الآلة السوداء التي تقول: تعالي.

وقفت. كلا، لستُ حرة. ينبغي ان اسكت هذا الصوت:

- الو من؟

- ندى؟

- نعم من يتكلم؟ جورج؟

- لا، أنا نبيل يا ندى...

وانفكّ فكي السفلي... ارتجفت، خيل الي ان نبيلاً يقتحم البيت فتراجعت الى الوراء، تراجعت، استندت بالحائط. وظلت السماعه بين يدي والصوت يختنق فيها: "ندى... ندى... الو... ندى..."

ولم أعد أقوى على الوقوف...

هل انا كيان؟ لكن الصوت الذي ينبعث مخنوقاً يهزّ قلبي. هل أنا كيان؟ لكن كلمة "ندى" تمسني في الصميم.

وخبطت السماعه بجنون ثم أمسكتها، اخنقتها، اعضها، وارتمي على المقعد ابكي. لماذا أبكي؟ ولماذا تخنقني الجدران الباهتة؟ فلأخرج الى الشرفة لألقي بنفسي الى أسفل، الى الشارع، تحت دواليب السيارة التي تمر.

أخاف... وأخاف ان أفتح الباب. لكن الرنين يزداد ويقوى. اقتربت وانزويت وراء المصراع أعوي:

- من؟

فتسلل الى أذني صوت زوزو الناعم.

- افتحي يا ماما.

"ماما!"

وقبلني زوزو ثم انطلق الى الداخل يزعق: ماما... ماما...

وتأملت خطواته تلتهم الغرفة وصوته الضائع عبر النوافذ المشرّعة، وتأملته يعود اليّ بانكسار: "أين ماما؟" وكدت أبكي وكان يبكي بدوره وهو يلتصق بي ويحضن خصري بيده:

- مامي، أين ماما؟

شددته اليّ وجررته الى الأريكة الخضراء الكبيرة.

- زوزو، ماما عند جدتك في الجبل. حرام... جدتك مريضة.

فغرق في عيني، في وجهي، في صدري: "ماما عند جدتي!" وفكّ يدي عنه وزحف بحقيبته يدخل غرفة أمه. وذهبت الى الغرف أضيء النور فأنا وحيدة. وأمام زوزو انحنيت، أقلب رأسه الى الوراء وأسنده برأسي. أطلع قبلة حارة على جبينه وأركز كرسيّاً قربه وأجلس.

ماذا يربطني بهذا الطفل؟

ولأخفق الحيرة أخرجت كتبه من المحفظة أدرسه. عيناه تحملان هذه الليلة شيئاً غريباً. وقربته أطبع على جبينه قبلة. وحضنته أقبله في وجهه وعنقه وعينه ودون وعي الصقته بصدري أغرقه بالقبل.

ولحقني الى المطبخ وأنا أحضّر له الطعام، امسكني من ثوبي:

- مامي ماذا تفعلين؟

وطمر رأسه بثوبي وبكل يديه حول خصري.

تأملت عينيه: تشدني عيناه، تشدني لئلا ابتعد عنهما، لئلا تظل هذه الرأس الصغيرة أمامي مشنوقة الى فوق.

يدي تهتز وهي تمتد الى فم زوزو... فعلي ان أطعمه بيدي وأمثل دور الأم. ان فكرة الأم تتخذ اليوم شكلاً غريباً، وهي لا تخيفني ولا تعجبني. شعور غريب تبعثه في صدري، شعور كضجيج الترام لا أدركه.

- هل ننام وحدنا مامي؟

لا اقوى على مقاومة عينيه. أشعر بقشعريرة في جسدي وأحسّ بفراغ يملأ الجو فأقف وأرفع صوت الراديو: هل امتلاً الفراغ؟ واغلق النوافذ واقلب كرسيّاً: هل خرس الفراغ؟

لكن الفراغ يهّم بخنقي.

هربت بزوزو الى غرفتي.

لا أزال أخاف. والأظافر تتبعني مع الأشباح التي يلدها النور المخنوق في البيت.

كيف أقوى على الصمود والدموع في عيني زوزو، ويداه المتشبثتان بعنقي تفتتاني؟

- مامي، قصّي عليّ حكاية...

وفوراً بدأت:

- كان هناك فتاة وحيدة... والدها ظالم، وامها ضعيفة... في المدرسة قال لها المعلم انها اقنوم، واقنوم يعني انها لا تستطيع ان تعيش وحدها، فبكت وبكت، وتركت المدرسة تفتش عن عمل لتعيش وحدها، فغضب والدها وضربها، وطردها من البيت، وتركها تتشرد في الأسواق... وفي ليلة باردة لم تجد طعاماً، فماتت وأكلت الكلاب لحمها.

بكي زوزو:

- يا حرام! مامي، ألم يعاقب الله والدها الظالم؟ يجب ان يموت.

غصت وتأرجح خيال أمامي: انا ما ازال اشرد في الأسواق، يرقصني البرد وتعوزني الثياب، ينقصني الطعام فأموت جوعاً واهترئ وتأكل لحمي الكلاب.

لماذا لم يمت الله ابي؟

هل اغلقت الباب؟ قمت وفتحته واغلقت من جديد. هل أطفأت الراديو. وباب الشرفة المطبخ؟ هل عدت واغلقت الباب؟

ضمت زوزو الى صدري اقص له حكايات طويلة مضحكة، احس مضمونها ولا ادركه، حتى شعرت بلهائه يدفئ لي صدري وجفنيه ينطقبان على دمعة جامدة، فانزلته في الفراش وجلست اتأمل فمه وانفه المرتفع وجبينه المقطب خوفاً. وتراءى لي ان صوته يزعق: مامي الم يمت الله والدها الظالم؟

يجب ان اتفقد الأبواب، لكني أخاف ان أقترب وركضت اندس الى الفراش التصق بزوزو. سيصبح رجلاً وحماية.

لكن، يجب ان أتفقد الأبواب.

فتحت بابي بهدوء وزحفت اضيء بسرعة الدار الواسعة.

الراديو فتحته، اغلقت. باب الشرفة فتحته اغلقت. شددت المفتاح. باب المطبخ فتحته اغلقت. باب غرفة الطعام، الباب الخارجي...

وركضت اندس في الفراش والتصق بزوزو لكني نسيت النور مضاء وقفزت فتعثرت بكرسي ووقعت.

هل انا حرة؟

شددت أطراف أصابعي فقادتني أطفئ الأنوار في البيت كله، وأطفئ النور الأبيض في غرفتي واضيء الأحمر الخفيف وينتشر ويخلف في الغرفة اشباحاً ضخمة عالية تحاول ان تنقض عليّ.

لكن، لكن هل تركت الدرج مفتوحاً في غرفة جورج والخزانة مشرعة في غرفة الزوجة؟ هل نسيت علبة الشوكولا بلا غطاء؟ هل أغلقت البراد؟

أكاد أختنق فلماذا تركني جورج وحدي؟ ولماذا تتحرك هذه الغرفة؟

اندسست في السرير امسك بزوزو والتصق به. الغرفة لا تزال تتحرك وتزحف وتدور بي وتقلبني؟...

ما هذا؟

وفتحت عيني: الاشباح تحدّق بي، الشبح الهائل في الزاوية يمد يده صوبي فأطمر رأسي... أشدّ زوزو الى صدري. زوزو حماية ولكن هل تركت الدرج في مكتب جورج مفتوحاً وخزانة الثياب مشرّعة في غرفة الزوجة؟

يجب أن أنام، فلو كان بقربي رجل لما خفت، لو كان في البيت نبيل لما قلقت، لكني...

لا... أنا كيان ويجب ان أعيش وحدي.

وأدرت وجه زوزو اليّ. صوّيت فمه الى صدري. بكيت.

لا أدري لماذا أبكي. اشعر ان في عيني زوزي شيئاً يبكي.

أحب زوزو أم أكرهه؟

هل أكره الأطفال؟

لا! لا! أحس بنار تشدني نحو الوجه الملائكي القلق واشعر بكف تهبط بفمي الى جبينه، الى انفه، الى مصدر اللهاث الحار.

انني احب زوزو!

ولكن هل الأطفال؟

لكن هل انا كيان؟

"يجب" أن اكره الأطفال!

\*\*\*\*\*



ودغدغنتي راحة وأنا أغسل وجهه الصغير وافرك قدميه بيدي واحمله. انها لذة كبيرة ان انتقي له من ثيابه قميصاً كحلياً، فانا اليوم حرة بزوزو البسه ما أشاء واسرح شعره الذهبي كما يخلو لي.

وفتحت له علبة مربي. قبلته. جلست اسليه بحكاية. قبلته. اصلحت حاجبيه وقبلته، لا استطيع ان امتنع عن تقبيله.

يجب الا ادعه يمضي اليوم ويترك الوحدة تخنقني فانا بحاجة لحماية، وبحاجة اليه.

لكن عقرب الساعة يزحف بسرعة نحو الثامنة وهذا معناه ان زوزو سيغادرني بعد دقائق الى المدرسة اود لو امسك هذا العقرب الزاحف!

اطبقت على زوزو اقبلة، ابلل شعره بدمعة، واغرق في عينيه واشده الى صدري. وانا اهذي بحكاية خرقاء. وتمنيت لو يظل ملتصقاً بي الى الابد، لكن زمور الاوتوكار يفصله عني فاراه يبتعد ويشد محفظته...

وانقضضت عليه. يجب الا ادعه يذهب. لكن الزمور يقوى، وزوزو يبتعد وركضت وراءه اضمه الى صدري:

- زوزو... اعطني قبلة.

وطبع شفتيه على شفتي ثم تناول رأسي وشده الى رأسه، ومضى.

وركضت:

- زوزو، زوزو، انتظر هل تحبني؟

حرق في وجهي:

- كثيراً احبك يا مامي.

- ومن تحب اكثر انا ام ماما؟

فرماني ببسمة وهو يمر بيده الناعمة على وجهي:

- انت اكثر.

واخذ يركض على الدرج واخذت اركض وزاد سرعته وزدت سرعتي وعندما امسكه الكاهن ورفعته الى الاوتوكار كنت اقف عند المدخل مذبوحة منهزمة.

وسارت العربة امامي فشعرت ان قلبي يفر من صدري ويسرع ويزيد سرعته.

تأملتها وهي تصفر كلما ابتعدت، وحين طوتها البناية الضخمة عند المنعطف المقابل استدرت اعد الدرجات.

لا أجسر على دخول البيت فانا وحيدة وبلا حماية. لكن أين أمضي؟

وتتأهى الى سمعي وقع خطوات من الطابق العلوي فشعرت بخوف ودخلت.

أخاف وقع الخطوات، وظل وقع الخطوات يقترب ويصل الى الباب ويبتعد.

خيل اليّ ان الغرفة تدور بي فجريت الى الباب امسكه والتصق به. وتراءى ان يداً تدق عليه.

هربت الى الاريقة وظلت الغرفة تدور ولم اعد اقوى على الوقوف فارتميت على الارض.

حتام اظل ممددة كالجثة.

وتضخم خيال الموت امام وتحول الى مارذ طويل، مارذ اسود ضخم، فشعرت بخوف وهربت الى الدار. ظل المارذ يتبعني حين هربت الى المطبخ وغرفتي ولم اعد اقوى على الصمود فصرخت وارتميت على السرير.

لماذا تتراجع الغمامة السوداء عن عيني؟ هذه الفاجرة ترحمني انها تعذبني.

قمت وعدت أتيه في البيت، افتح باباً واغلقه، امسك حائطاً واشده، ولم اشعر الا واصابعي تتسلسل عبر ثياب زوزو. لم اشعر الا ووجهي يغرق في دولاب ثيابه...

انني احب زوزو، ولم اعد اكره الاطفال، انا بحاجة لقم يرضع من ثديي، بحاجة لرجل، ينام قربي في الفراش ويدفئ صقيعي، يطويني حنواً ويترك فيّ بذرة طفل.

اشعر انه عليّ ان ادور في البيت واتحرك، واحس ان عليّ الا اقف واترك الفراغ يدور في الغرفة وبي. ان اركض، افعل شيئاً ما، ان اقلب هذا الكرسي واحطم هذا الاناء.

وظللت أدور واتحرك واقرب الاثاث وانزل اللوحات الى الارض واغير وضع الراديو، وافتح النافذة واغلق باب الشرفة. ظللت ادور واتحرك واعمل... ولكن هل نجحت؟

الغرفة لا تزال تدور بي؟ والوحدة كشبح الموت تخيم عليّ.

ماذا افعل؟

وقفت امام المكتبة وسحبت "دروب" الذي بنى وحدتي مع المحاضر في الندوة وسيما دنيا والصفع واللذة والسيارة والراتب وابي وشوارع طرابلس، فكيف اهدم هذه الوحدة لأحيا وأمارس حقي؟

ارتفعت اظفري لتتأثر وتهدم الوحدة فانقضت على الكتاب تحرقه وكنت ارقب بارتياح اوراقه المتناثرة في الغرفة.

وبقيت امزق والاوراق في الغرفة تتبعثر.

وعندما وقعت آخر ورقة هدأت وتأمّلت البلاط واشتات الورق، واهوي عليها بقدمي ادوسها وادوس معها الكيان والوحدة وقافلة الايام التي مضت كالسراب...

فالآن انتهى طور، وعلي ان ابني طوراً آخر، علي ان اسير.

هربت من الغرفة الى، الى الدار، فالشرفة، هربت، هربت...

ولكن، أين أمضي؟

انني بحاجة لحماية، بحاجة لطفل، بحاجة لقم يرضع ثديي.

وأخرجت ثديي اللاهبتين المكتنزتين وقربت الزهرية منهما، فتململت فيهما البرودة. ارتجفت والصقت الزهرية بثديي اكثر.

لو كان هذا الاناء طفلاً لشعرت بحرارة.

لماذا لا يكون عندي طفل يرضع غليان دمي؟

أمسكت الزهرية وخبطت الأرض بها، وانقضت على أجزائها أدهسها وأحولها الى اشلاء صغيرة. وعمتني لذة التحطيم فركضت نحو المطبخ وأمسكت بكدسة صحون. هممت بأن أهوي بها الى الأرض لكنني تذكرت انها ليست لي فأنا غريبة، والبيت ليس لي فأنا غريبة!

حقاً يجب أن أهرب من هذا البيت، ان أهرب من الوحدة والغربة. ولكن... هل هذا الشارع لي؟

وبقيت أسير...

وخيل لي ان التاجر المرتخي على الباب يصفعني ويقول: غريبة.

فركضت أجلس في سيارة السرفيس، فسيارتي مع جورج. ولكن، هل السيارة لي؟ لم أدفع بعد من ثمنها الا جزءاً تافهاً.

السيارة ليست لي وغرفتي ليست لي. انا لا أملك شيئاً. متى أملك شيئاً وأصبح حرة في تحطيم كدسة صحنون في بيتي؟ تمنيت لو تكمل هذه السيارة انطلاقاً لكنها بصقتني عند البرج وتركتني.

أين أمضي؟

لا أدري. بل أدري! انني أبحث عن شعور أحسسته قرب نبيل، وأحسسته قرب جورج، وأحسسته عندما جمعني الفراش بزوزو. عن شيء يكون لي، عن حرارة لثديي، عن حماية!

ورحت أبحث في عيون المارة، وتوقفت امام سيارة تنهب الشارع، وتوقفت أمام الترام الصاخب.

لماذا لا أموت؟

يجب الآ أموت.

وعدت أفتش عن شيء يخصني وانسان يساعدني في سحق الغربة ويترك لي حرية تحطيم كدسة صحنون في مطبخ يكون لي.

وتهدت. وأخيراً توقفت.

من هذا الذي يمر؟ من؟... هنري عيد!؟

ركضت نحوه ولحقت به الى الرصيف المقابل. كادت سيارة تجتاحني وانا اقطع. وصفر لي البوليس. لم أقف. ظللت اركض وصرخت: "هنري! هنري!" واخيراً وجدنتي امام سمرة جبينه الهادئ والدمعة الذائبة في عينيه.

أمسكت يده بكلتا يدي، شددت عليها، كدت أرفعها الى فمي.

ونزع هنري يده من يدي!

- ندى هل أصابك شيء؟

وعدت اتمسك بيده. ماذا يهمني من الناس؟ "اريد" الآ اترك هذه اليد.

وعاد هنري يشد يده من يدي:

- ندى، مع الاسف، لقد انتهى كل شيء...

انظري المحبس... وهذه الآنسة خطيبتني.

نقلت نظري بين لمعان المحبس في يده اليمنى والفجور في عيني الفتاة الممسكة بزنده ونقلت نظري من سمرة جبينه الى قدميه المبتعدتين عني، ونقلت نظري من قدميه الى الشارع ومن الأرض الى السيارة المجنونة أمامي، وفكرت:

الآن، أين أمضي؟

وعدت أسير. هل انا في حلم؟ وقعت على الأرض امام الاوتوماتيك فركض اليّ مصوّر: "ماذا بك؟"

وقفت وتمنيت لو أشده الى صدري واقول له: تزوجني. تمنيت لو يحملني ويعريني ويحولني الى ام، الى ام طفل. تمنيت لو يمدني على سرير عارية ويسلخ ثديي ويرضع منهما الحليب... لكنه تركني ومضى.

واتكأت على الحائط ارقب الشارع واحواض النبات الاخضر في المقهى، والباب الزجاجي المتحرك. وفتشت بين المارة عن خصلة شعر تائهة على جبين، وبين السيارات عن سيارة حمراء، وبين أفواه المارة عن فم فسخته الشهوة.

وانتقلت الى داخل الاوتوماتيك وهبطت الى الطابق السفلي. وبين المقاعد فتشت كذلك. وتهالكت على المقعد عند البركة الزرقاء واخذت أبكي.

أين نبيل!

لكن هل يتزوجني نبيل؟ هل يهيني بيتاً يكون لي ويطرد الغربة من حياتي؟.

كلا، مستحيل، فنبييل لا يزال طالباً في الجامعة.

وخرجت.

اتكأت على واجهة ثم عدت أمشي.

شعرت بالانحلال فوقعت ثم قمت ثم وقعت وقمت.

وارتميت في سيارة وضعتني أمام مدخل البيت. لكن لماذا أقصد هذا البيت ما دام ليس لي؟ لماذا أخرج المفتاح من محفظتي ما دامت الغرفة ليست لي؟

اغلقت الباب وارتميت على الارض. الورق المبعثر يخنقني. يجب ان أهرب ولكن أين؟

أخرجت من الخزانة قميصاً قديماً طويته ودسسته تحت ثوبي...

بطني الآن منفوخ... انا حبلى!!

تمشيت أمام المرأة: انا حبلى. ليتني استطيع تقبيل بطني المنفوخ!

يلزمني رجل انعمشوق بيده واطرد الغريبة.

وسقط القميص من تحت ثوبي. ورأيت بطني أمام المرأة ممسداً فارغاً فصعقت.

انشبت اظافري في بطني أمزقه، أمزق ثوبي، اشد لحمي الى الخارج لينتفخ، لأصبح حبلى.

لم ينتفخ، ولم اشعر بحرارة تدفئ ثديي، فرجعت الى الورااء والتصقت بالحائط وتأملت الورق المبعثر على الارض والزجاج المحطم والقميص القديم...

وارتميت على الدرج، واخذت اسير.

أين أمضي؟

انني افتش عن رجل يطرد غريبي ويترك لي حرية تحطيم كدسة صحون في مطبخ يكون لي، في بيت يكون لي.

ورحت اسير، واسير، واسير، أبحث عن حرارة لثديي.

ولا أزال اسير دون ان ادري الى أين أمضي.

( انتهت )